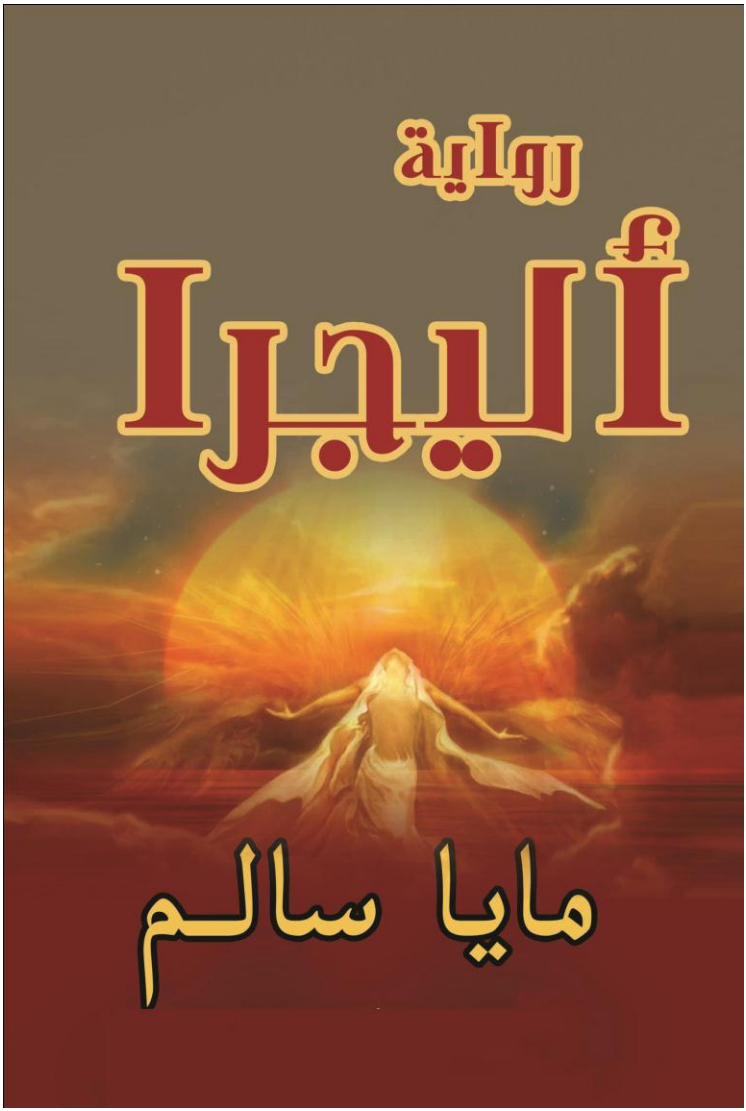
رواية
أليجرا
مايا سالم

أليجرا

بقلم

مايا سالم

الإهداء

إليك يا نور الوجود بقلبي

لك أنتِ يا شاطيء النجاة لروحي

مايا

الرواية من نسج الخيال

ولا تمت للواقع بصلة

خارج إطار الزمن

لا أبحث عن النهاية .. لا أقرأ الزمن بقواعد إدراكي..

كل قوانين عقلي أصبحت هينة هشة، تتطاير كدخان،

وكلما اقتربت من شاطئ النجاة، وكلما لمعت نجمة لأهتدي بها، انقلب عالمي رأساً على عقب وأصبح الشاطئ طائراً مشتعلاً يحتضر بدوامة بحجم المدى، وصارت النجمة ثقباً أسود يبتلع توهمي بالهداية ..

أهذه لعنة التساؤل؟!

أم أنها أصل الوجود وأنا لا أدري؟!

ولأنني إنسان، أصبحت رغبتي في المعرفة أكبر من قدرتي على التأقلم وأكبر من خوفي بنعتي بالجنون .

***

الفصل الأول

أليجرا

"أليجرا لومين" ربما كان اسمي يوماً ما .. أنا فتاة غجرية، ابنة الطبيعة الحرة، يتيمة الأبوين .

ربيبتي هي "إيفا لومين" العرافة المباركة، قارئة أقدار الزمن .. تعلمت قانون الحياة لوجودٍ حُر وهو ..

(اللا قانون).

حياة الغجر والتجوال ليست بالحياة المُنعمة التي تنشئ فتاة تحيا بقانونٍ وعادات وإضافات وقيود، حياتُهم تصنع روحاً صاخبة لا تعرف معنى الخوف أو الرياء .. الأرض لها أينما حلَّت، فعالمها بسعة المدى، جسدها مقدس كمعبدٍ لا يتعبد به إلا من يعتنق ديانتها ويكفر بكل ما عداها..

تعلمت أن أكون كطائرٍ بالسماء، وكقطرةٍ تنحت الصخر من ماء.

علمتني ربيبتي "إيفا لومين" أن العشق مُهلك مُنهك، ولكنه دواء للروح، بدونه أذبل كورقةِ خريف.

***

مملكة "البارو"

مملكةٌ أبعد من أن تُذكر بكتب التاريخ، لم يتناقل أخبارها أحد من المؤرخين .. لم يذكر اسمها حتى بين المتخصصين في البحث عن العوالم المنسية التي لم تصل لأسماعنا .. أسطورة خيالية، كقارة "أتلانتس" لا تستطيع الجزم بوجودها أو عدمه ولكني أستطيع!

لقد قضيت بها جزءاً هاماً من حياتي .. إنها جميلة، بكر، خصبة الأرض، تتكون من مجموعة من القرى التي تحيطها جبال شاهقة الارتفاع.

بها نهران يسيران بالتوازي بطول المملكة، يصبان ببحيرة عذبة سمعت عنها الكثير من الحكايا والوصف الفائق الجمال من ربيبتي "إيفا"، كانت تقول لي دوماً:

"إن السير بموازاة النهرين يُدخلنا بعالم الملائكة المتمردة، وبأن رحمة الرب جعلت ماءَ النهرين يمران بنا أولاً وبهم ثانيا، حتى لا تنتقل لنا موسيقى أرواحهم على سطح موجات النهر، فإننا إن استمعنا لموسيقاهم غرقنا بعشقهم الذي لا نعلم تأثيره علينا، وأن منطقة مصب النهرين بالبحيرة بها قلعة يقيم بها المنفيون من الوجود المعروف لنا، وأن هذه القلعة محاطة بالوهم، لم

يقترب منها أحد وعاد بعقله وإدراكه المعروف، ولكنه يعود كمن فتحت له حواجز البصر لتصير خارقة ترى ما لا نستطيع رؤيته فنتهمه بالجنون كعادتنا مع كل ما لا نستطيع فهمه ".

وكان هذا سبباً رئيسياً في ابتعاد الجميع عن مصب النهرين، فأقيمت التجمعات متقاربة وارتبطت القرى ببعضها وتكونت مملكة "البارو" التي يعمل أكثر من بها بالزراعة ويطلق عليهم"السيروفورم" ..

"السيروفورم" يجيدون التأقلم مع كل الظروف الحياتية، استطاعوا أن يؤقلموا أنفسهم مع الحرمان من كل متع الحياة، وأصبح كل ما يرغبونه هو استمرار العيش بسلام.

وعِلية القوم بها هم "الباروتنس"، وهم الحكام الفعليين للمملكة، حتى وإن بدا للعامة أن الملك هو الذي يحكم ولكنه دوماً في صراع خفي مع كهنة "الباروتنس"، فهم يريدون جمع سلطة القانون الملكي وسلطة كهنة الإله، هم من ابتكروا قوانينَ المنع من كل الملذات الحسية رغبةً في الترقي لمراتب روحية أسمى .. قوانين على الجسد الذي يقود الإنسان للجحيم، قوانين لمنع الموسيقى التي يعرفون أنها قادرة على التأثيرعلى النفس فتخلق

تمرداً لا يريدونه، وقوانين لتحريم الجنس إلا بأطرٍ شرعية لابد فيها من الزواج بموافقة كهنة "الباروتنس"، وبدون موافقتهم يكون الزواجُ باطلاً!!

كانوا يدعوون للتقشف والزهد والتخلي عن الحياة، صوروا كل الملذات كأدواتٍ بيد الشيطان يجز بها أعناق المُنجرفين وراءها .

مهرجان سالوتيس

ابتدع كهنة "الباروتنس" مهرجاناً بيومٍ محدد من العام أسموه "مهرجان سالوتيس"، كان كهنة "البارو" يحرصون على إقامة المهرجان بأفضل توقيتٍ، وأن يقدموا به أفضل العروض التي تجذب الحضور، حتى وإن كانت هذه العروض تخالف قوانين المملكة التي وضعوها هم، إلا أنهم - من أجل نجاح المهرجان - يجب أن تتنحى القوانين مؤقتاً لتعود وقتما شاؤوا ما دامت تخدم أهدافهم ..

"فلقد خُلقت القوانين لتطبق على العامة وليست لأجل عِلية القوم"، فتُدق الطبول، وتعزف الموسيقى، ويرقص المبدعون، وتقام العروض المسرحية الراقصة التي تدور حول الخلاص من قيد الجسد والتطلع لعالم الروح والترقي.

كل ذلك لأن المهرجان فرصة رائعة لجمع التبرعات والقرابين التي تزيدهم ثراءً فتملأ خزائنهم، ومن لم يستطع التبرع بالمال ينذر لهم وقتاً من العام يعمل لهم بلا مقابل من أجل ان تحل بركاتهم عليه.

ويعود شعب "البارو" والقرى المجاورة بعد المهرجان وقد حملوا معهم أدعية وبركات تكفيهم عاماً كاملاً حتى موعد المهرجان القادم لتكن مهلة زمنية لمدة عام لادخار المال لينفقونه بالمهرجان المقبل، فحتى بركاتهم مؤقتة ولها فترة صلاحية .. كان الغجر يحضرون من كل القرى المجاورة للاحتفال بالمهرجان والمشاركة به، فينصبون خيامهم على الأراضي التي تحيط بموقع المهرجان، ولم يكن ذلك مقبولاً من "الباروتنس"، فقد كانوا يمقتون وجودنا ويروننا أدنى من التواجد بمحيط مملكتهم.

وبيوم لن يُنسى كانت "إيفا لومين"، ربيبتي المباركة، تسير بين الخيام لتتفقد تنظيمها، فيقابلها الجميع بالاحترام الواجب لها .. ابتسامتها العذبة الواثقة، المُلازمة لشفتيها الرقيقتين كورقةٍ من شجرةٍ مثمرة قد غُسلتا بندى السماء فتلمعان بلون الورد، الذي ينعكس عليه ضياء الفجر فتنثر سلاماً وطمأنينة لم يعكرها سوى أن اقترب حينها كاهن من كهنة "البارو" ليتكلم بفظاظة وحِدة :

- لا يُسمح بإقامة الغجر بهذا المكان، إنها الباحة المقدسة لا يخطو عليها غجري مطلقاً .. ارحلوا الآن وفوراً.

- نرحل؟!

- نعم ارحلوا إلى أي مكان ولكن ابتعدوا عن الباحة المقدسة حتى لا تدنسوها

أجابته "إيفا" المباركة: نحن من ندنسها؟! منذ متى أصبحت الأرض مقدسة فلا يخطو عليها بشر؟! ومنذ متى أصبحت خطوات الإنسان تدنيساً للأرض ؟متى منحتم لأنفسكم السلطة لتتملكوا أرض هي هبة الرب لنا جميعا لنحيا عليها ونعود لرحمها ونثمر نبتاً طيباً؟

منذ متي أصبح للأرض مالكين؟ إنه هزل وعبث البشر.

- أنت يا مشعوذة، ألا تفهمين؟! هذه أرض مقدسة

- أرض مقدسة وإنسان أقدس من كل المقدسات التقديس للإنسان أيها الكاهن!

صمتت "إيفا"، لقد حضر رئيس الكهنة العظيم أنطونيوس: أصمتِ وكفي عن كلماتك التي تلقيها عن غير علم.

ردت بسخرية: كلماتي عن غير علم؟! وكلماتكم تقطر علماً؟! اعلم أننا نحن أصحاب القداسة، نحن الملاك وملوك الوجود، كيف أصمت وأنصاع لخَلقٍ مماثل لي؟!

يحدق بها "أنطونيوس" الكاهن الأعظم وبصوتٍ حاد:

- "إيفا"، أنا أستطيع أن أمنع كل الغجر من الوجود بالمملكة لو أردت.

- أين صك الملكية؟

- أي ملكية؟

- ملكية الأرض "أنطونيوس"

- اسمي الكاهن الأعظم يا مشعوذة

- لقب لقبت به نفسك وأنا لا أعترف به.

- خذوها وألقوا بها في السجن حتى تكفر عن ذنوبها. اقترب منها حارسان، فأسرعت وحُلت بينهما وبينها، فلم أستطع الصمت أكثر من ذلك، اقتربت من هذا الـ"أنطونيوس" ونظرت له بتحدٍّ وخاطبته بهدوء لينصت جيداً لكلماتي ولأسمح له بالتراجع حينما يقتنع

لن تستطيع المساس بـ "إيفا" المباركة أنا أعتقد أنك أذكى من ذلك، فنحن لسنا قلة والعامة هنا تعلم من هي "إيفا لومين" فهم يكنون لها الكثير من الاحترام والتقدير وأنا لا أعتقد انك تود التورط بفعل من الممكن ان ينعكس سلبا على المهرجان وعلى الجموع التي تحضره هل ما أقول صحيح؟

أم أن المهرجان وعائداته ليست مهمة لتخاطر بها بسبب خلاف بسيط، وجودنا هنا مؤقت فتحمل ذلك ونحن نتحمل وجودنا بينكم حتى موعد انتهاء المهرجان ما رأيك الآن ايها الكاهن؟

(كان "أنطونيوس" يغيب بشفتي وأنا أتكلم كان ينظر لي نظرات افهمها جيدا .وأعرف تماما ما تعني كان يكاد يلتهمني بعينيه بيديه التي ربتت على كتفي فابتعدت عنها كمن لدغته أفعى ليكمل بابتسامتة اللزجة)

- سنسمح بوجودكم المؤقت يا ابنتي إلى أن ينتهي المهرجان كوني مطمئنة يااا

- "أليجرا" .. أنا "أليجرا"، ربيبتي هي المباركة "إيفا لومين"

- ستشاركين في المهرجان إذن؟!

- نعم

- إذن فأنتِ من المختارين، فلتحل عليكِ بركاتي

إن احتجت شيئاً فأتِ للمعبد واطلبي مقابلتي شخصياً فأنا خادم الرب أمنح بركاتي لكل من يطرق بابي.

(غادر "أنطونيوس" ولمحت بعيني "إيفا" قلقاً لا نهائي، كانت تنظر لي وكأن عينيها تحيطانني، وكأنها ترغب بأن تخلق حولى غطاءً من الفولاذ ليحميني)

***

الفصل الثاني

ماركوس

وكان دوماً على رأس الحضور بالمهرجان الملك و كبار كهنة"الباروتنس"

وهذا العام سيكون الظهور العلني الأول للملك "ماركوس"

الملك الشاب الذي توج قبل أيام من المهرجان والذي لولا استحقاقه التام لولاية العهد وعدم وجود من ينازعه على الملك لكان آخر المرشحين من كهنة "الباروتنس"

"ماركوس" الشاب الهادئ الطباع، العاشق لفن الرسم، المتيم بالألوان والذي يستطيع من خلال الريشة أن يحكي آلاف القصص بملامح معبرة عما يجيش بالنفوس من صراعات وتغيرات فيغير النظرات ويمنح الألوان قبلة الحياة فتتحول لكاميرا تغوص بعمق الشخصية لتظهر مواطن ضعفها وقوتها ومع ذلك يحترم البروتوكول الملكي ويتعامل بذكاء مع "الباروتنس "وأن كان لم يمنعه هذا الذكاء من مواقف عدة انتقد فيها بعض الأفكار والأحكام والاعراف التي تدار بها المملكة.

"ماركوس" لم يظهر اقتناعا بفكرة العروض الدينية والخطب الرنانة التي تدعو للزهد، خاصة ممن يحيا برغد العيش ويمسك بمقاليد المال والسلطة "فمن يدعو

للزهد فليكن هو زاهداً وإلا لأصبح مدعياً داعياً لما لا يؤمن به"

وهذا تناقض لطالما انتقدة "ماركوس" بسخريته المعهودة ونقده اللاذع..

"ماركوس" شاب يملك عقلاً متسائلاً عن الحكمة والفكرة والأسباب والأهداف .. شاب يملك عقلا لا يصنف، ولكنه يملك روحاً مترددة تائهة بين المراقبة والإقدام، فهو لا يتبع نهج عقول "السيروفورم" (العامة والتابعين) فهو يراهم قد ألغوا عقولهم واختاروا التنازل عن الحياة .. اختاروا أن يكونوا كقطيعٍ ينتظر التوجيه والإرشاد حتى وإن كان مرشده سيقوده للجحيم.

ولا يقتنع بأفكار "الباروتنس" (طبقة الحكام) حيث إنهم جماعة من المتعالين الذين يهدفون للسلطة المطلقة بأي ثمن وتحت أي مسمى .. "ماركوس" لم يعلن عن مشاعره وأفكاره في العلن ولكنه آثر الصمت المؤقت أخذاً بنصيحة" فيليب".

***

"فيليب" المربي والناصح الأمين خاطب دوماً عقل "ماركوس" قام بتفعيل نواحي النقد والتفكير والتأمل بعقله وروحه، علمه أن الكل إنسان وأن الحقوق

متساوية وأنه عندما سيصبح ملكاً سيكون مكلفاً بإعادة حقوق العامة، وأول حقوقهم هدم عبوديتهم، نشر الوعي الإنساني بأنهم بشر لهم كل الحق بالحياة الكريمة التي تليق بهم .

أفهم "فيليب""ماركوس" أن بقدر سلطته بقدر مسؤليته عن تصحيح الأوضاع عن إعادة الأمور لنصابها الحقيقي.

رفض أن يربيه على البروتوكول الذي ابتدعه "الباروتنس"، كان يرى قوانينهم قوانين مجحفة وخارجة وعاصية على الطبيعة الإنسانية.

صرح كثيراً لـ "ماركوس"أن ما يقوم به الكهنة من استغلال لنفوذهم باسم الدين والإله سينعكس بالتأكيد على المملكة وعلى شعبها الذي أصبح شغله الشاغل رضا الكهنة، ونسي وتناسى عن قصد أو عن غير قصد مقاصد الحياة، فأدرك "ماركوس" شذوذ تفكيرهم وخروجهم عن الفطرة السليمة بالمغالاة في التدين الظاهري وتناسى الهدف الأسمى من التواصل مع الرب

واستوعب الفارق بين الانصياع عن فهم وإدراك وقرار، وبين الإجبار والتهديد والوعيد ..

طالب "فيليب" "ماركوس" بإعادة التوازن المفتقد بين الدين والحياة، طالبه بأن يستخدم سلطاته لخلق تناغم بين الهدفين وتوازن بين الغايتين.

***

اليوم مهرجان "سالوتيس" .. يدخل "فيليب" الجناح الملكي بنظرات بها الكثير من الحب والتبجيل والفخر للملك الشاب الذي تولى تربيته، وكان مسئولاً خاصاً مقرباً ليُعِد الأمير "ماركوس" ليصبح الملك "ماركوس".

وبسعادة من أنجز" الجزء الأول" من المهمة على أكمل وجه اقترب "فيليب" من الملك، وببسمة لا تغادره)، "ماركوس" الغالي، قلبي وعقلي فخوران بك، أنت من ستقود مستقبلاً أكثر إنسانية .. أنت من سيغير تاريخ المملكة..

(ببسمة المشاكس): تغيير التاريخ؟ وهل يعنينا التاريخ كثيرا "فيليب"؟

- لا .. فالتاريخ كلمات مشوهة أُلقيت من فم المنتصرين حتى لو كانوا قتلة وسفاحين، كتبوه لينزهوا أنفسهم وأسماءهم عن خطايا، ليبرأوا منها يجب أن يغمسوا بالجحيم ألف عام إلا أنهم اختاروا الطريق الأسهل والأسلم وهو كتابة ما يشاؤون ..

حاولوا غرس فكرة أنهم الحامون والمدافعون، أو القائمون على حماية الإنسان والأديان والأوطان، وقاموا بذلك التشويه المتعمد للتاريخ ليمنحوا أنفسهم سعادة الانتشاء بفكرة زائفة، سعادة القدرة على تشويش صورة لواقع شديد القبح؛ لذلك لا أعير التاريخ اهتماما.

(يوجه "فيليب" عينيه لـ "ماركوس" كمن يرسل كلماته لتستقر بعقل الملك الشاب)

ولكني أقصد أن ترسي قواعد إنسانية لمستقبل أفضل تجعل الأجيال القادمة يسطرون اسمك كمن فتح باباً للحرية يطرقه كل من منح الإدراك والوعي.

- فتح أبواب الحرية لن تأتي إلا بتغيير عقول شعب المملكة وهذه مهمة ليست بالسهلة بعد قرونٍ من سيطرة كهنة "الباروتنس" ..

- التغيير يبدأ مع ثقتك بقدرتك على التغيير، وأنا أثق أنك ستغير تاريخ البشرية كلها.

(يبتسم ماركوس): بهذه الثقة سأخلد اسمي بكوني أول ملك لا يؤمن بالقوانين الملكية.

(ضاحكا): أول ملك يقود انقلاباً على نفسه!

- ممكن جداً .. ثورة الملك على الملك جديدة ومقنعة، ثورة فكرية على كل ما منعنا من التجدد، على كل من قيَّد عقولنا ومنعنا من البحث عن الحقيقة والحرية .. منعنا من البحث عن الأصل، والأصل حياة من دون قيود (يصمت قليلاً ثم يكمل): إلا قيد حدود الآخر، الأصل إنسانية "ماركوس" ومن المؤكد سيأتي اليوم الذي نرى به العالم بمنظور مختلف!
- (ماركوس مقاطعا): أخشى أن أهدم أملاً راسخاً بعقلك وروحك،"فيليب"، ولكن الوعي عند العامة أصبح مهلهلاً منتهكاً لن يعود بترقيع أو ترميم.
- إذاً لتهدم الوعي الحالي .. لتهدم الآلهة البشرية التي تم تقديسها لتعيد بناء وعي يليق بمملكة أصيلة .. تليق بأن تكون نبتة لإنسانية تحتوينا جميعاً وأول خطوات هدم الخرافة أن تفهم العبد أنه بالأصل حر، وأنه هو من خلق لنفسه إطارا محدوداً ضيقاً، ولكنه إطار وهمي، أن تكسر القيد العقلي، ولابد أن تؤمن بنفسك وبقدرتك على التغيير.

(يهز رأسه موافقاً) : لايوجد إيمان ثابت، صحيح الإيمان بالذات هو أولى خطوات النجاح، ببعض الوقت أصدق وأؤمن بقدرتي، وأوقات أخرى أشعر أني

أصارع الجنون، وأن هدفي عبث، وكثير جداً أشك في قدرتي على التغيير.

ماركوس، الإيمان متغير، بضع من زيادة وبضع من نقصان، الأهم إرادتك وأن تحاول، وقتها سيتبنى فكرك الكثيرون.

ـ الأفكار لها صوت كطنين النحل عندما لا تتحقق تصيبني بالصمم "فيليب".

- طنين النحل أرحم من صمت القبور

- وهل يوجد خيار ثالث؟

- حياة على الهامش لا تليق بمن يملك فكراً حراً.

- الوعي مؤلم والحياة سيف قاطع تمر بلمح البصر، ولن نشعر بسرعة مرورها إلا عند مغادرتها .. إن كانت الحياة لحظات قصيرة لنجعلها ممتعة لتستحق أن تُعاش" فيليب".

***

(وبيوم المهرجان كان الزحام شديداً على المسرح الذي أقامه "الباروتنس" .. يرغب الجميع بالحضور لمشاهدة الرقصات والمعزوفات والمسرحية الموسيقية، التى أمثل بها دور الغواية الشيطانية التي سيتجاهلها الفلاح الورع ليصبح بعدها كاهناً مقرباً للإله، بخطواتٍ بلونٍ وردي، أقدام تتلألأ كمنحوتة "لليونارد دافنشي" دبت بها الحياة فكانت كاملة الوجود، كاملة السحر والتأثير .. يزين عيني كحل شديد السواد فيزيد نظراتي عمقاً لمن أراد أن يغوص بمحيط لا قاع له .. خطوت بخلخالٍ كأجراسٍ ملائكية تعلن عن وجوب الصلاة والتعبد بمحراب الفن الذي يسري بدمي .. مسرح يشتعل بالموسيقى .. دقات أقدامي تتزامن مع دقات الطبول .. بقلبي برودة جبال الثلج وبروحي اشتعال براكين الكون، نظرت نحو الجمهور الحاضر فرأيت عيني الملك الشاب "ماركوس" وهما معلقتان بي، بجانبه "أنطونيوس" الكاهن الشره .. رأيت الحشدَ الذي حضر لمهرجان "سالوتيس" بعيون يخافون طرفها، لربما تنقضي لحظة لا يروننني فيها وأنا أشعر كأني مُخدرة ممسوسة من جان .. أقترب من الفلاح وأنا أجسد الغواية، فيكاد ينهار أمامي غير أنه يتماسك ويبتعد مادداً ذراعيه كحاجزٍ بيني وبينه، فيهتز المسرح بالهتاف لقوته في قهر الغواية التي أمثلها.

(وعيناه معلقتان بمكان خروجها من المسرح، يتحين الملك "ماركوس" اللحظة المناسبة ليسأل الكاهن "أنطونيوس")

- من هي؟

يجيبه "أنطونيوس" كبير كهنة "الباروتنس" :

- هي أليجرا لومين

(أجاب "أنطونيوس" باسمها وهو يلعن كل ما بها من تفاصيل، هو يمقت الإحساس الذي يعتريه عندما يراها، يمقت الجهد الذي يبذله ليخفي تأثيرها عليه .. هذه الأنثى التي تَجسَّد بها الشيطان، فكانت كحيّة ملونة تسحر الناظرين إلى أن تميتهم برفضٍ وكبرياء، فما بالك بكاهنٍ يحاول كل لحظة أن يرتقي لمرتبة أعلى من البشر، يسعى ليكون أقرب للرب بأن يقتل بداخله كل الاحتياجات الجسدية وإن كانت كل محاولاته قد باءت بالفشل، فهي لم تستطع أن تمحو غرائزه ومتطلبات جسده التي تنبض مع نبض قلبه لتطرق على أبواب عقله فتتسبب بألم مبرح وغضب هائل يخفيه ببسمة السلام ونظرات الزهد، ولكن "أليجرا" قادرة على كسر حائط الورع المحيط به، فهي تملك تأثيرا عاصفا يطيح

بمحاولاته في الثبات أمام جنونها وعبثها الدائم بعقله وخياله وجسده أحيانا أخرى).

(يحدث "أنطونيوس" نفسة وهو محدق بها ويشعر باقتراب أنفاسها حتى تكاد تخترقه) .. والآن لماذا يسأل الملك الشاب عن اسمها؟ أتكون أسَرته بجمالها كما تأسر الآخرين؟ حتى أنا تأسرني؟! لا .. لا تأسرني، حتى إنها لا تؤثر بي .. أنا الكاهن .. أنا ابن الإله كيف يخزلني جسدي فينجذب لها؟ كيف تخزلني عيناي فتتطلعان لها؟!

سحقاً لهذه الغانية! ألف لعنة على جسدها وصوتها البح ونظراتها القاتلة ورقصها المثير والآن ماذا؟! أستملك عقل "ماركوس"؟!، ولم لا .. أليس رجلاً وكل الرجال في العشق سواسية؟!

- "أليجرا لومين" (ردد اسمي الملك الشاب وكأنه يقرأ تعويذة تسلب عقلة وروحه)

(تستمر الموسيقي بالعزف كخلفية هادئة، وأعود للمسرح لأبدأ معها بالدق على طبول أحتضنها بين قدمي .. تلامس جسدي مع أخشاب الطبول جعل الأخشاب أكثر ليناً وطواعية لطرقاتي .. وبدأت دقاتي على جلد الطبول الناعمة تحكي قصة الأرض وحكايات الوجود منذ الأزل وتعيد بعث دقات القلوب على أرتام

الطبيعة بلا خوفٍ أو ألم، صارت الدقات انتفاضات لجسدي، كل ما أشعر به يخالف كل قوانين الطبيعة، أشعر بداخلي بالتقاء النار بنقاء الثلج، أتحسس جمال لفحات الشمس والرياح المُحملة بقطرات المطر، سَرت الموسيقى بخلاياي .. رقصت على دقات الطبول، تحيطني النيران فأتلوى ثم أموت في مشهد يأخذ الألباب ويسحر الناظرين، ينتهي العرض فتصمت الجموع متأثرة بما شاهدوه.

نوعٌ خاص من السحر يختطف روح الجموع المشاهدة ولا يردها الا بإرادة الممثل ..ولكني لا أمثل.. أنا أحيا هذه المشاعر المضاعفة ...خاصة عند سماع الموسيقى ثم أعود مرة أخري على المسرح، فتضج القاعة بالهتاف والتصفيق أحيي الجموع بابتسامه وقبله أرسلها للمدى.

***

يقترب رجلٌ من المسرح وبحركة مسرحية ينحني لي، فأبتسم، ثم يرفع يديه ممسكاً بقلادة من الأحجار الكريمة الحمراء التي تمتص الألوان الساقطة عليها فتتلألأ ببريق شديد الروعة .. شعرت بعيني قد ثبتتا على عيني الرجل، كانت عيناه ساحرتان عميقتان بلون لم أستطع

تحديده .. اقتربت منه قليلا حتى شعرت بأنني أكتمل، فقد لمحت بداخله سلاماً لا يضاهيه سوى شعوري وأنا بأحضان "إيفا" .. مد يديه البرونزيتين اللون وهو يمسك بالقلادة ليضعها حول عنقي، انحنيت انحناءة خفيفة فأمسك بالقلادة ولف يديه حول عنقي وتقاربت شفتانا، كان موقف جنوني .. غاص بعيني ووضع القلادة وأغلق محبسها، ولامست أصابعه جسدي لأشعر بنشوة تفوق الصعود لأقمار الكون والعودة بطرفة عين .. ابتعد بتهذب بالغ بخطوات خلفية، كمن لا يملك القدرة على التوقف عن رؤيتي، ولا يملك القدرة على أن يدير لي ظهره، وأنا لا أملك القدرة على الابتعاد عن المسرح.. وقفت متسمرة أتبعه بعيني، غاب وسط الحشود، خرجت مسرعة أبحث عنه فاصطدمت بـ "إيفا") ..

- أرأيت هذا الرجل؟

- أي رجل حبيبتي؟

- كان هناك رجلاً بين الجموع اقترب وألبسني هذه القلادة وغاب!

- عزيزتي، الحرس يحيط بالمسرح ويستحيل أن يقترب منه أي أحد .. "أليجرا" حبيبتي ربما لم يكن رجلا، ربما

هو ملاك غاليتي ومِنح الملائكة دائماً ما تكون للمختارين، وأنت حبيبتي مختارة منذ الأزل (صمتنا وتبادلنا النظرات، ولكن مازالت عيناه عالقتين بذهني.

***

الفصل الثالث

(كانت لحظة غروب ساحرة .. صعدت أعلى التلة أرقب الشمس ترحل على وعد بلقاء، ثم سرت بمحازاة النهر أرقب تدفقه وأنظر للمدى الساحر .. بالأفق دخان بعيد .. رؤى مشوشة ولكنها شديدة التأثير، رغبت لو استطعت الطفو على النهر ليحملني هو لمصبه الذي تلفه الحكايا والمخاوف ..وددت لو رماني النهر بشلالٍ من الماس المبعثر كألوان الكون لتتلقفني بحيرة أغيب بها كمن يكتشف حواساً أخرى غير تلك المحدودة التي نعرفها! أشعر أن بآخر امتداد النهر عالم عذب .. طوبى للمجهول .. طوبى للخوف الذي يحمي الطبيعة منا ومن عبثنا بها .

عندما عدت وجدت رجلين يقفان عند خيمة ربيبتي المباركة "إيفا"، أسرعت الخطى وحاولت الدخول فأوقفاني، فانفعلت عليهما ..

- من أنتم ولماذا تمنعوني من الدخول؟ ابتعدوا الآن وفوراً.

(كان صوتي عالياً شديد الحِدة، فخرجت "إيفا" من الخيمة مسرعة لتهدئتي، وبمجرد أن رأيت ابتسامتها اطمئن قلبي، ثم اصطحبتني لعربةٍ يجرها أحصنة ذات شعرٍ طويل يبدو من عند الجذور كجديلة، ثم ينهمر

كشلال شديد النعومة .. جسدا الحصانين اختلط بهما اللونان، الأسود والأبيض على شكل بقع ساحرة الجمال!

تحركت العربة يحيطها فَرسان شديدي الأناقة واتجهنا إلى طريق تحفه أشجار دلونيكس (أشجار النار الحمراء)، كانت المسافة ليست بالبعيدة، خاصة علينا نحن من نهوى التجوال والترحال، وصلنا لقصرٍ غير قصر الحكم، كان القصر الخاص بالملك "ماركوس" قصراً كالتحفة الفنية الساحرة، تفنن المبدعون في نحت تماثيل شديدة الدقة لنساءٍ عاريات فتظهر تفاصيل التفاصيل برؤية فنان يدرك أن الجمال بصمة متغيرة، فلا ترى تشابهاً بين اثنتين، فلكل أنثى بصمة خاصة ونظرة مختلفة أو لربما كان يدرك أن النساء لا تقبل سوى التفرد، فقرر أن يحترم مشاعرهن، وتماثيل لملائكة ترقب السماء وتطلق سهام العشق بين المتحابين وتظهر بأعينها نظرات حانية كمن يمسح بيديه الرحيمة على قلوب البشر، ومنحوتات بارزة على الجدران لشياطين بأذناب وآذان مخيفة وأنياب بارزة ..

(لماذا يصورون الشيطان بهذه الهيئة البلهاء؟ لا أعلم، ولكني أكاد أجزم أن الشيطان بكل لحظة ينظر بها لهذه التخيلات المجسدة رسماً ونحتاً عن شكله وهيئته يغرق

في الضحك حتى لا يتمالك نفسه .. أراه يقهقه بصوت مرتفع، ويلف كراقصة مبدعة بين السماء والأرض، ثم ينظر لصورته على صفحة الماء ومرايا الكون، فيزداد سعادة وثقة أنه الجنس الأسمى بالوجود، فالتمرد قد منحه بريقا خاصا.

ثم من يتخيل ويصور الكائنات الخفية بهيئة شديدة السطحية، هو جنسٌ فاقد الأهلية للخيال .. نعم الخيال مِنحة للموهوبين فقط، ليست لمحدودي الفكر الذين يصورون الشيطان بهذا الشكل المضحك.

دخلنا لقاعة كبيرة واسعة، وجلسنا على وسائد ناعمة مريحة، ولكني ما أطقت الجلوس، وقفت لأتفحص كل ما بالقاعة، ثم فُتح باب هائل الحجم، إنه مرتفع بما يزيد على عشرة أقدام، ليدخل منه الملك "ماركوس" .. لا أعرف لماذا يصنعون أبواباً بهذا الحجم لملكٍ لن يتعدى الطول الطبيعي للبشر!! الأ يكفيه للمرور باب كالأبواب المعتادة، أم أنهم يعتقدون أنه من الممكن أن يصبح عملاقاً لأنه الملك؟

ويلِي من عقلي الذي يرى أشياءً غريبة! ألا يستطيع أن يصمت قليلاً لأفهم ما يحدث؟!!

نظر لي الملك "ماركوس" وابتسم وكأنه يقرأ أفكاري .. هو شديد الوسامة وتزداد وسامته بابتسامته الصريحة .. ليست زائفة ولا خجولاً .. يبتسم فيزيد من جمال شفتيه.

وقفنا أنا و"إيفا"، فأشار لها بالجلوس واختار هو كرسياً بمنتصف القاعة وبدأ الحديث:

- أتيت بكم لأبحث رأيكم في إقامة قرية على أرض المملكة لأشملكم بالرعاية، أنا أعلم أنكم تحبون حياة الترحال وأعلم أيضاً أنكم تواجهون تحدياً عندما تأتون قريباً من عاصمة المملكة، ولكني سأعرض عليكم تملك أرضاً قريبة من النهرين لتقيموا عليها منازلكم، ولتستمتعوا بطيب إقامتكم هنا، ولتكن قريتكم آمنة بكونها جزءاً من المملكة، ترحلون حينما تشاؤون وعند عودتكم تكون لكم مصدراً آمناً ومقراً ثابتاً فينشأ أبناؤكم محبين للمملكة، أصحاب انتماء حقيقي وصادق لها .. فما قولكم؟

صمتت "إيفا" ولم تقدم إجابة، فهي دوماً ما كانت تعيد الفكرة قبل قولها وتثمن كل حرف تنطق به.

تابع الملك "ماركوس": خذوا من الوقت ما تشاؤون ولكني أنتظر عند عودتكم لمقابلتي رأياً واضحاً وقراراً صائباً.

تكلمت "إيفا" بصوتها الهادئ :

- مع كل التقدير لعرضك الكريم، الأرض ملك لنا بدون مِنحتك الملكية، أنا مواطنة ابنة هذه الأرض ولي الحق بالتواجد هنا أو بأي مكان، هذا أنا عقلي وإدراكي ولكن ما يشغلني - حقا - الآخرين، الذين يعشقون الأرض هنا، الذين كبروا وأثمروا وألفوا الحياة بجوار النهرين، لا أملك أن أتكلم باسمهم إلا بعد استشارتهم .. امنحني بعض الوقت لأجيب على ما طرحت.

قام "ماركوس" وابتسم لـ "إيفا": لك من الوقت ما تشائين.

(غادر الملك "ماركوس" وغادرنا)

عدنا واجتمعت فور عودتنا "إيفا" وكل أسرتنا التي تربطني بها ألف صلة أهم كثيراً من صلة الدم، وطرحت "إيفا" عليهم كل ما قاله الملك "ماركوس"، فكانت موافقتهم واضحة وسعادتهم بادية على وجوههم، ورغم تردد "إيفا" الذي يبدو على وجهها، والذي أعلم سببه جيداً، فهي ترى أن الأرض ملك لجميع مواطنيها، أنها وطنٌ أم يحتضن ويتسع للجميع بلا تفرقة، وأن الأطماع البشرية هي ما خلقت المعاناة والصراع، وترى أن الانصياع بقبول المِنحة أوالعطية سوف تشتمل

على موافقة على الأوضاع وقبول لفكرة التملك، وأن فكرة الملكية الخاصة للأرض تتعارض مع فكرة الوجود والعدل اللذين تؤمن بهما إيماناً مطلقاً، إلا أنها قبلت برأيهم واحترمته وأبلغتهم أنها ستنصاع لرأيهم وستبلغه للملك "ماركوس".

***

المنحة التي منحها الملك "ماركوس" للغجر كانت بالنسبة لي منحةً غالية لم أر منها سوى الجانب الخيِّر، الذي يجعل من العابرين مُلاكاً للأراضي وهذا يشعرهم بالأمان والثقة والولاء.

وشعرت بأن الملك "ماركوس" فعلاً رجلٌ يستحق الثقة وبدأت بالانجذاب نحوه، خاصة بعد لقاءات متعددة بيننا أثناء إشرافة الشخصي على تسليمنا الأرض، أو أثناء جولاته التي كانت - وبالصدفة البحتة - قريبة دوماً من مكان تواجدي .. تقابلنا عدة مرات أنا والملك "ماركوس"، وبيوم كان يتنزة بحصانه بجوار النهر حينما كنت أرقب سريان الماء لمستقره الغامض .. اقترب "ماركوس" :

- ما الذي يجذبك لهذا المكان"أليجرا" ؟

- يجذبني غموضه .. أشعر أنه سر خفي يمر من أمامنا ولا نراه .. حلم تنساه عندما تستيقظ ولكن يترك بك أثراً جميلاً .. النهر يحمل لنا الخير ويرسل قصص من مر بهم ليُسقطها في مصبه .. أتخيل لو أنني سبحت بمصب النهرين فسأحيا آلاف الحكايا، وأنت .. أجبني عن السؤال نفسه؟

- إن روعة النهرين هي منحة الرب للمملكة .. هدية ساحرة، إن قرأناها كرسالة ربما تتغير مقدراتنا .. النهر يجمع القلوب، يصنع رابطاً من نوع خاص كالذي بيني وبينك.

- رابط من نوع خاص بيني وبينك؟! ما هو؟!

- من تتلاقى أرواحهم وميولهم وآراؤهم بالحياة يجمعهم رابط خاص، نسميه عشقا، نسميه حبا، ولعا، جنونا، المهم أنه رابط يجمعم.

ضحكتُ، وتحادثنا عن المملكة وعن قوانين "الباروتنس" وعن رغبته الصادقة في التغيير، كان يلقي على أسماعي كلماته فتصيب ما أتمنى بالوجود، كنت أشعر بالانجذاب نحوه يزداد، كان شديد الاهتمام بي حتى طلب مني أن أدعه يرسمني، فأحببت عشقه للفن ووافقت، فأصبحت لقاءاتنا متكررة، منتظمة، أتموضع

أمامه فتنساب ريشته لتتغلغل بتفاصيل تفاصيلي، ولم يكن يدعني أرى ما يرسم حتى انتهت اللوحة، فأذِنَ لي برؤيتها .. كانت لوحة أو رسالة أو طلباً، هذا ما عنته لي.

كانت لي وأنا أجلس على كرسي العرش أرتدي تاجاً ملكياً، وهو يقف خلفي وأنا سعيدة أبتسم ابتسامة هادئة صادقة، وطلب مني رداً على اللوحة) :

- "أليجرا" .. أتقبلين أن تكوني ملكتي؟

لم أعرف كيف أجيب، توجه عقلي تجاه "إيفا"، ترى هل ستوافق على هذا الارتباط؟ وهل سيتم قبولي كزوجة للملك، خاصة أن هذا الزواج سيكون بالتأكيد مرفوضا من القانون "الباروتنسي"؟ ألف فكرة عصفت بعقلي ولكني أجبته :

- لن أستطيع أن أمنحك إجابة الآن .. فكر "ماركوس".

- فيم أفكر؟

- فكر بتبعات القرار .. أنت تعلم القانون "الباروتنسي" وتعلم أننا لن نستطيع تحديه.

- القانون "الباروتنسي"؟ "أليجرا"، ليكن زواجنا هو أول معول يهدم أي قانون جائر، لنكن نحن اللبنة الأولى في منح الآخرين أملا بحياة أكثر حرية.

بعدها طلب الملك "ماركوس" مقابلتنا أنا و إيفا، وعلى الرغم من عدم الاقتناع التام من جانب "إيفا"، ولكن نقاشاتنا أدت لقبولها بذلك ووصلنا لقصره الشديد الفخامة، بدأ "ماركوس" الحديث:

- أريد أن أسترد روحي وقلبي لأكتمل بك، أريد الزواج منك "أليجرا" وأرغب بمباركتك "إيفا".

صمتت "إيفا" ووجه "ماركوس" عينيه لي انتظاراً لردٍ مني، صمت أنا أيضاً حتى رمقتني "إيفا" بنظرة وطلبت مني إجابة، شعرت عندها بحِملٍ غريب لا أعلم له سبباً، فأرجعت إحساسي لتمسكي بالحرية التي أبتغيها وأحياها، أومأت بعيني وأجبتُ ربيبتي:

- أنت ربيبتي، أمي ونور القلب .. إجابتك على طلب الملك "ماركوس" ستكون مرشدي.

"إيفا" بصوتها العذب: دعونا لا نتسرع بالإجابة، دعي قلبك يكون مرشدك "أليجرا" واجعلي عقلك يأخذ القرار بتمهل، فزواجكما تمرد وهدم لمعتقدات رسخت داخل العقول والقلوب .. القرار ليس سهلا!

"ماركوس" مُقاطعاً "إيفا": عشقت "أليجرا" .. أيكون هذا دافعاً لسرعة اتخاذ القرار؟

- عشقتها؟

(نظرات "إيفا" تسافر أبعد كثيراً مما نراه)، ثم تكمل بشرود : هذا هو أكثر الأسباب منطقية، العشقُ إن كان صادقاً يكون اجتياحاً للروح والقلب والجسد، لا نملك الموافقة أو الرفض، لا نملك سوى الخضوع لسلطته خاصة لو أصاب القلبين ..**(في إشارة متسائلة لي)**

- لا أعرف بماذا أرد عليك**!!**

(أكملت متسائلة كمن تطرح كل ما يجول بخاطرها على طاولة النقاش)

- أشعر أنني مأخوذة بهيبة وجودي بالقصر، وأشعر أنني لست حرة في القرار .. ماذا لو رفضتُ؟

- من حقك الرفض ومن حقي أن أحاول وأن أستميت في المحاولة **(كان صوته يحمل صدقاً شديداً، كانت نظراته تائهة وكأنه لا يجد وصفاً لشعور تملكه)**، وأكمل: قلبي خفق بشدة عندما رأيتك بالمهرجان، بك شئ غريب يجذبني لك كأن بيننا قصةً تأبى إلا الاكتمال.

حادثت نفسي: "ولمَ الخوف؟ إنه رجل اجتمعت به صفات نبيلة، وهو قريب الشبه لعقلي ويجمعنا الكثير"

(كانت كلماته دافعاً للبوح عما بنفسي).

- أخاف قيود الزواج، أشعر أنني ولدت حرة وأود أن أحيا وأموت حرة .. أريد حياةً يحيطها سلام .. إن وافقت على الزواج فارغب بعقلك ليشاركني لحظات حياتي، أريدك متفهماً حنوناً عطوفاً، قادراً على إدراك اختلافي وسأكون حرة بلا قيود البروتوكول وعُقد الملكية.

- ستكونين كما تشائين "أليجرا"، فأنا لا رغبة لي في الحفاظ على العُقد الملكية .. كم أرغب في تحطيمها على صخرة الحرية وعشق الحياة!

(قطعت"إيفا" حوارنا متعمدة بكلمات لها الكثير من المعاني) :

- ليكن الرب حامياً لقلوبكما من الألم .. لتكن أقداركما رحيمة بكما.

***

الفصل الرابع

أنطونيوس

قاعة بالقصر الملكي .. "ماركوس" يجلس على كرسي العرش ويقف أمامه الكاهن "أنطونيوس"، وبنظرات كلها غضب وتحفز يرتفع صوت "ماركوس" مخاطباً "أنطونيوس" :

- لا .. أنت لا تملك أن تمنع زواجاً ملكياً، رأيك استشاري ولم أطلبه منك، أنا أبلغك بقراري بالزواج من" أليجرا"، ملكتك القادمة.

- تتزوج من غجرية راقصة ليس لها انتماء وهوية؟! هي نبتُ شيطان بصحراءٍ عقيمة، ثم إن رأيي ليس رأياً استشارياً، رأيي شرط اساسي لإتمام الزواج، بدونه يصبح الزواج باطلاً وأنت تعلم .. أنا أحمل سلطة الإله والإله رفض هذا الزواج.

- ويلي وويل المملكة، بل ويل البشرية جمعاء من سلطتك التي تمنحها لنفسك باسم الإله!!

- "ماركووووس"، أنت تتجاوز، أنت تحطم أسس المملكة، أنت تهدم المعبد عليك وعلى نسلك القادم!

- زواجي ليس اختياراً من الرب، هذا اختيار القلب، دع أمر القلب للقلب "أنطونيوس"، ثم لماذا تقحم الإله بكل

شئ .. لا أعتقد أن الإله راضٍ عما تلحقه به من صفات، وهو من خلق بقلوبِ البشرِ مشاعرَ الحب والعشق، الرب الذي ترك لنا في الحياة القدرة على الاختيار واتخاذ القرار وإلا لما كانت نيران الجحيم ستستقبل أصحاب الخيارات الخاطئة ونعيم الجنان لأصحاب الخيارات الصائبة .. كيف تكون هناك محاسبة بدون إراده واختيار .. كفي" أنطونيوس" ليس الجميع أسرى أفكارك وتعليماتك.

- كنت أعرف أنك لن تقبل بالخضوع لبروتوكول المملكة، وتأكدت معرفتي عندما منحت للغجر جزءًا من الأراضي الملكية المقدسة، التي كان من واجبك الحفاظ عليها وتطهيرها منهم .. كنت أراهن نفسي أن روحك لم تتطهر كما يجب.

- التطهر .. ياله من استغلال للكلمات!! ما المقصود بالتطهر "أنطونيوس"؟ وهل تطهرت روحك؟

- أنا ؟ كيف تسأل وأنا كبير كهنة "الباروتنس"؟! لقد تجاوزت حدود المعقول "ماركوس" وأعلم أن نهاية مملكتك ستكون بقدومها كملكة، وأقسم أنه إن تم هذا الزواج سيتحول ماءُ النهرين المقدسين لدماء، وستحرق

القلاع، وستتفشى الأمراض لتحصد الأرواح وستصيبنا لعنات لا طاقة لنا بها.

أجاب "ماركوس" بتهكم: أيجب عليّ أن أخاف الآن وأرتجف من تهديدك الغبي، وهل سيتأثر الإله بزواجي للحد الذي سيجعله يقتل الأطفال والنساء ويحرقهم بسبب اختياري؟! ويل للإله من وصفك له بالتوحش!

- أنا أدرى بالإله منك.

- (**منفعلا**): أنت لا تدري سوى ما تُمليه عليك نفسك

- لا "ماركوس" أنا أدري ما بنفسك .. أعلم أنك لن تستجيب لأوامر الإله وأنا أعدك بأنه لن يكون هناك وقت للتراجع أو للندم .

- إذن أنت تعلم أنني سأتزوجها وستكون ملكتي ولتفعل ما تشاء، والآن انصرف قبل أن أفقد حكمتي.

(ينصرف "أنطونيوس" وهو يتمتم بكلمات ليست مفهومة، ويطلب "ماركوس" من الحرس إحضار "فيليب") .. يدخل "فيليب" مُسرعاً: نعم مولاي

- قم بإرسال الكاهن "أنطونيوس" لمعبد المعتزلين فوراً، لا أريد أن أراة مجدداً، أبعِده قدر المستطاع " فيليب".

- لك ما تأمر .. المواجهة بدأت مبكراً مولاي.

- وستستمر "فيليب"!

التتويج

قصرٌ شديدُ الروعة .. بهوٌ عظيم الاتساع .. مشاعل بطول الممر المؤدي لقاعةٍ ساحرة على رأسها كرسي عرش .. أصوات تراتيل وأناشيد .. منشدون كعزف ملائكة .. دقات طبول .. زهور التيوليب مرصوصة كأمواج بحر .. أرتدي زياً ملكياً يمتد لأكثر من عشرة أقدام تزينه الأحجار الكريمة .. شعري الغجري أحمر اللون كسديمٍ سماوي مُحاط بتاج من الياسمين البري .. قلادة نارية تتألق وتعكس حمرة وجنتيّ .. ابتسامة من ملاكي الحارس "إيفا"، هبة الرب لي بعد انفصالي عن والديّ اللذين لا أعرفهما، فكانت هي ربيبتي وحارستي الأمينة.

"إيفا" بنظراتٍ كبحيرةٍ عذبة تسكنها الحياة بسلام .. عيناي معلقتان بـ "ماركوس" ينظر لي مبتسماً .. اقترب ليتلقف يدي لأقف بجانبه على عرش قلبه ومملكته .. يقف الجميع احتراماً .

تقترب "إيفا" تقف بمنتصف القاعة لتتمِّم مراسم الزواج:

- اليوم نعلن زواج ملكنا المعظم "ماركوس" من ابنتي وهبة الربّ لقلبي "أليجرا لومين" .. ليكن الرب راضياً

ليكن القلب راضياً .. لتكن الروحُ راضية.

(قالتها "إيفا" وأمسكت بتاج الملكة واقتربت وخلعت عني تاج الياسمين ووضعت لي التاج الملكي المرصع بالأحجار الكريمة)

***

لا أعرف سببَ الحنين الذي غلفني وسرى بداخلي بأنني خزلت الياسمين بأن قايضته بالذهب والأحجار الكريمة، همست لـ "إيفا" :

- احتفظي لي دوماً بتاج من الياسمين، فأنا أشعر أني خزلته.

تبسمت "إيفا" وأومأت برأسها دلالة على تنفيذ ما أطلب وقبَّلتني، أمسك "ماركوس" بيدي وجلسنا على العرش وبدأ الاحتفال بالزواج .. لا أعرف الوقت الذي استغرقه الاحتفال غير أني كنت أشعر أنني بحالة من التوقف العقلي، لم أعِ نصف ما يقال ولم أستطع أن أتابع الفقرات .. كان يحتويني إحساس غريب بالوحدة والخوف .. كان الصمت هو السمة الغالبة على وجودي، عيناي جامدتان بلا أي انفعال، مفتوحة كنافذة تطل على المدى بلا أي ساكنين بها، فتبدو مهجورة

وحيدة ترغب بمن يُشعرها بأهميتها من خلال نظراته عبرها .

أفقت من شعوري هذا على قبضة يد "ماركوس" على يدي، فتلفتُّ مبتسمة بسمة أشعر أنها بلهاء .. وقف "ماركوس" فأسرعت بالوقوف .. سرنا معاً وفتح الباب الهائل الارتفاع، فضحكت بصوتٍ عالٍ .. أعتقد أنها ضحكة لا تتناسب ومرتبتي الجديدة كملكة يجب ألا يرتفع صوت ضحكاتها .. كنت كمُهرجٍ سخيف بيوم حِداد .. كتمت ضحكتي واختلست نظرة على "ماركوس" فلم المح سوى شفتيه المزمومتين.

بالجناح المُعد للزواج سرير كبير مترامي الأطراف كملعبٍ لممارسة لعبة الاختباء، وقد كان ملعباً مناسباً بالفعل، مارست على هذا السرير الركض من "ماركوس" وإلى "ماركوس" .. كنت ألهو إلى أن تلاقى جسدانا ...

كنت أظن أن التوحد والتفاني في الآخر هو غاية الاندماج بين الرجل والمرأة، ولكني وجدت غاياتٍ أخرى حكت لى عنها "إيفا" عندما حاولت أن تفك طلاسم جسدي لأتهيأ للقادم عند الزواج .. عشت لحظات سعادة وخوف وارتباك ونشوة وارتقاء.

اختبرت مع "ماركوس" كل ما يجب أن يكون وليس كل ما توقعته، ما يجب هذا محبطٌ جداً .. كيف يكون الشعور واجباً؟ ومتى تستطيع أن تترك لجام الجسد لينطلق بلا حدود لبلوغ أعظم النشوات وأكثرها إلحاحا؟! وهل النشوة جسد أم هناك نشوات للروح؟ نعم هذا ما قصدته تماماً، ربما يبلغ الجسد المُنتهَى وتبقى الروح بمرحلة الشَّبق احتياج آخر ليس كمثله شئ!

منحته كل ما كان يتمنى وربما أكثر، ولكن بقيت القطعة المفقودة بروحي تدفعني للبحث، فوجدت ضالتي بالرقص، هذه الحركات التي تتفاعل مع قوى الكون في تجانس وانسجام تام .. كان رقصي سماحاً لسريان موجاتٍ كونية من خلالي، مِنحاً من السماء تفنى بخلاياي، ألف لحظة نشوة تتخلل جسدي، تتناثر كتفجر ألعاب نارية ولكنها لا تنطفئ .

مرت الليالي الأولى من زواجنا ما بين لقاءاتنا السريرية التي امتدت لتشمل كل ما يقع تحت جسدينا، وبين رقص أنتشي به، وبين محاولاتي لخلق توازن بين نشأتي كغجرية وبين كوني الآن ملكة لمملكة لها بروتوكول محدد. كنت أشعر بغصة غريبة بحلقي تشوش كموجات تصيب عقلي، ثم تبتعد على وعدٍ بعودة أشد حِدة.

اللعنات

(وبشكلٍ متصاعد من صباح يوم التتويج إلى الآن حدثت تغيرات مخيفة.

لون النهرين أخذ في الانتقال من الشفافية والنقاء المطلق للونٍ كلون الدماء، حمراء مختلطة بالسواد بمذاقٍ شديد المرارة .. سفن تغرق على السواحل بلا أسباب منطقية يتبعها اندلاع حرائق لقلاع من بقاع مختلفة بالمملكة، كانت النار تنتشر وتنطفئ بلا أسباب والعامة يتخبطون لا يفهمون ما الذي يحدث، فبدأت حالة من الرعب والفوضى في الانتشار بينهم يقودها ويزيد من اشتعالها كهنة "الباروتنس"، فقد قاموا ببث الرعب بقلوبهم حتى تخللها الفزع، وعندها منحهم "أنطونيوس" سبباً وجيهاً لوقوع اللعنات، فأصبحوا كالدمى بيد الكهنة وبيد كل من يبرر أسباب اللعنات، كل من يمنحهم أملاً في الخلاص يصبح بمثابة إله لهم، يتبعونه بلا أدنى معارضة، وقد أجاد "أنطونيوس" استغلال الموقف.

***

(يقف"أنطونيوس" بصحن معبد المعتزلين مخاطباً الكهنة والعامة الحضور) :

- مملكتنا على شفا هاوية .. اللعنات تحيط بنا من كل جانب، ليس لنا ملجأ سوى الإله الذي أرجوه أن يغفر أفعال الملك"ماركوس" .. الملك "ماركوس" الذي فتح أبواب المملكة للشياطين ليستقروا بها .. الملك "ماركوس" الذي قرر الزواج عن طريق مشعوذة .. الذي لم يحترم البروتوكول الملكي في الزواج، فنحن كهنة "الباروتنس" لم نوافق ولم نقبل بزواج الملك من الغجرية "أليجرا".

الملك "ماركوس" الذي أحضر الغجرية "أليجرا" للمملكة ومنحها تاج الملك وأجلسها على العرش في تحدٍّ سافر لسلطة الإله!

الملك "ماركوس" الذي جلب لشعبه اللعنات من أجل امرأة أياً كانت، هو ملك أشعر تجاهه بالشفقة، فهو لا يصلح لتولي زمام الأمور، هو لا يصلح كقائد ورمز للمملكة، ولكني مازلت أتمسك بالأمل وأطلب من الرب الغفران، فإن تراجع الملك عن هذه الخطوة فإن بقلبي بحجم الوجود غفراناً يحتويه ليعود إلى حظيرة القانون "الباروتنسي"، ولكن ليتخلص أولاً مما لحق به من دنَسٍ بدخول "أليجرا" وأتباعها المملكة؛ فوجودها هو سماح لقوى الشيطان أن تتمكن من المملكة ..

(يتابع "أنطونيوس")

إرادة الإله هي أن يحكم الرب وأن نكون نحن حماة القانون الإلهي .. إرادة الإله أن نخوض غمار الحروب مع الشيطان لحماية المملكة .. **(تندفع مشاعر الحضور هتافاً واقتناعا فيرتفع سقف طموحه، ويستمر في خطبته بقوة وانفعال وذكاء)** ..

ولتكون السلطات في تجانسٍ وانسجام، فلا بد من جمع السلطة الملكية، تُقوِّمها السلطة الدينية، وتكون السلطتان بيد من يستطيع الجمع بين الاثنتين، التي أحلم وأتمنى وأطلب من الرب أن يكون الملك "ماركوس" قادراً على القيام بها.

لن أستطيع أن أطلب منكم أن تصبروا على اللعنات التي تحيطكم، ولكني أطالبكم بالدعاء والصلاة لهداية ملككم العظيم "ماركوس"، فما هي إلا نزوة خطفت روحه وعقلة.

وعلى الرغم من أن الملك يجب ألا ينصاع لنزوات أو هفوات ولكني اتباعاً لقوانين "الباروتنس " لن أدعو سوى بالهداية للملك الشاب.

(تنساب الدموع من عيون الحضور ويمسح "أنطونيوس" دمعة ترقرقت بعينيه، ثم يرفع يديه

للسماء ويعود لصومعته وسط جلبة الحاضرين وخشوع باقي الكهنة)

***

راقبت الأحداث التي أخذت في الازدياد والتي وصفتها بلعنات "أنطونيوس"، استشعرت خوف واضطراب العامة .. كانت اللعنات هي التحدي الأول "لماركوس" في السيطرة على الجموع والمحافظة على المملكة من الانهيار، كانت فرصته الأولى في التمسك باختيار قلبه ليضع أول قانون باتباع القلب وليلغي قانوناً من قوانين "الباروتنس"، وهو هذا القانون المشوه الذي ينص على أن (الزواج من صلاحياتهم التي يجب أن يوافقوا عليها وأن الاختيار الأول والأخير يجب أن يكون لهم وليس لطرفي الزواج).

هؤلاء المعتوهون ما هي سلطاتهم التي سمحت لهم بالتوغل داخل العقل والقلب للمتحابين؟؟

ولكنه انتظر وانتظر حتى شعرت بمسؤولية جعلتني أتدخل لأفهم وأسأل عن سر الانتظار والصمت!

اقتربت منه وهو بشرفة جناحه وخاطبته:

- ماركوس

التفت ليرى عينيّ فتغيرت ملامحه: ملكتي وسبب سعادتي.

- أو سبب الألم، أو باب دخل منه الجنون للمملكة

- "أليجرا" .. كل الأمور ستعود لما كانت عليه قريبا.

- الزمن لا يعود، "ماركوس" اخطب في العامة واعلن أن "أنطونيوس" يقوم بأسحار لتدمير المملكة.

- لا "أليجرا" .. لا أريد صِداما مبكرا .. العامة عقولهم مغلقة لن يفكروا ولن يستوعبوا الآن.

- إذاً .. فلتحاول اللحاق بخطوات "أنطونيوس"، فالصدام بدأ بالفعل منذ توجت ملكاً، وما ستقوم به هو محاولة للرد، محاولة لقلب الأمور لصالحك. "ماركوس" الآن، وإلا ستتصاعد الأزمة ولن تنتهي .

-"أليجرا" لقد طلبت علماء في الطبيعة والرياضيات وحكماء وفلاسفة ليقوموا بتفسير اللعنات والأحداث الغامضة.

- لا وقت للتحليل والدراسة، لو أردت الاستقرار ولو مؤقتاً أعطِ للعامة فكرة من الممكن أن تجعلهم يترددون في إطلاق الأحكام .. حارب بنفس السلاح.

- الحرب بنفس السلاح تدنٍّ لن أقبله .. بالحكمة ستُحل الأمور.

- الحكمة مع الحكماء "ماركوس" .. الآن وقت الردود الواضحة والمباشرة وإثبات قوتك كملكٍ، عدم ردك سلاح بيد "أنطونيوس" وسيستغله بدناءة واضحة، و عندما تنجرف العامة خلف الخرافة، سيستمرون حتى قاع الجنون والتمرد والتدمير في كثير من الأحايين، واجه "أنطونيوس" بشدة وستجد لك أتباعاً منتظرين منك رداً.

- "أليجرا" .. كفى أنا أدرى منك بالمملكة وبشعبي، أطلب منك الآن الانصراف واتركيني لأدير الموقف بحكمة.

(نظرت له بغضبٍ وألم وابتعدت بخطواتٍ طرقت بها بعنف على الأرض، ودِدَت بهذه الطرقات لو كانت على رأس"أنطونيوس" وأتباعه)

***

الفصل الخامس

بلا عودة

(كان يوماً عاصفاً .. يوما تلفه اللعنات .. يوم قررت الذهاب لرؤية الأم المباركة "إيفا".

لم يكن اختياري هذا اليوم تحديداً، بل كنت مضطرة للذهاب وفوراً..

كنت أشعر بألمِ "ماركوس" وبحيرته، تردده، الذي يغلفه بتمسكه بالحكمة مؤلم لنفسي، فهو دليل على حداثة عهده بتدني "أنطونيوس" وأتباعه ..

أين هو من أقواله ومعتقداته؟ هل كانت أفكاراً وقفت عند حاجز التنفيذ؟

أخشى انقلاباً يدمر المملكة، أخشى ثورة العامة بعد أن فقدوا الأمان .

أنا لم أولد بالمملكة ولا أنتمي لها، فأنا أمقت قيود المكان والزمان، حتى قيد الانتماء يؤلمني، ولكن بدون إرادتي انتميت بدرجة ما لـ "ماركوس" .. انتميت لعالمه وأمنت بأهدافه وأفكاره خاصة تلك الأفكار التي تطابق الكثير من معتقداتي حيث (عالم حر بلا قيود الوسطاء بيننا وبين الرب، حيث الأرض منحة الرب للإنسان لينعم بها، حيث القانون واجب النفاذ على الجميع حماية للضعفاء وليس على الضعفاء).

امتطيت حصاني "ليو" وغادرت، كانت وجهتي لربيبتي المباركة "إيفا لومين" .. كنت أبحث عندها عن الحل .. عن فكرة للخروج من مأزق ثورة العامة المتوقعة .. حل للعنات لا تنتهي تحاصرنا من كل جانب، وبدأت الرحلة!

***

غادرت قصر الحكم وتوجهت لـ "إيفا" اهتديت بالنجوم، كان حصاني "ليو" يقود طريقي، يسابق الريح ويخترق الغمام .. يرفع رأسه فيتطاير شعره الأسود الأبانوسي اللون، فيختلط به شعري الأحمر بلون النبيذ فيبدوان كسيفٍ مُحترق يخترق ليلاً حالك السواد .. كان يقترب مني لأتمسك به حينما يقفز أو يمر بمناطق وعرة.

استمر في الانطلاق كسَهمٍ يعرف وجهته حتى توقف أمام بركة صغيرة من ماء، وشعرت بالظمأ والحر فترجلت عنه واقتربت من البركة الصافية التي تنعكس عليها نجوم السماء فتزيد من شهيتي لها، وخلعت عني ثيابي وسبحت في الماء .. نمت على ظهري ووجهي للسماء وانا أستشعر لمسات الماء لجسدى .. أغمضت عينيّ وعندما عدت لأفتحهما لمحت خيالاً، فرفعت

وجهي لأراه أمامي .. أعرفه، ملامحه ليست بالغريبة، رأيته مسبقاً بمكانٍ .. بزمانٍ .. لا أدري ولكنه مألوف لروحي.

ابتسم لي ونظر بعيني، فما عدت أنا .. اشتعلت النار بكُلي وخرجت وأنا عارية إلا من قطرات من الماء وأوراق ورد أبَت إلا أن تلتصق بجسدي، وقلادتي النارية تعكس ضوء النجوم الساقط عليها .. شعري يخفي بعضاً من جسدي، ويأبى بعض آخر إلا إزاحة شعري جانباً ليبدو نافراً عاصياً في مهمة تطلع لمن اقتحم عزلته.

اقتربت منه حتى رأيت عمق عينيه.. كانت لحظة سقطت من حسابات الزمن، لم تغادر عيناه عينيّ، كانت تحتويني، فما بيني وبينه سنوات وسنوات من الحياة. إنني أعرفه تمام المعرفة، تملّكني جنون لحظي فذابت شفتاي بشفتيه .. تلاقتا لتتفجر نجوم السماء وتمطر علينا عطور الياسمين، فتنشقت روحي عبير الجنة التي بحثت عنها ولم أجدها مسبقا.

تصورت لفترة أن ما أبحث عنه وهماً، إلى أن ذقته .. إن ما تخيلته حقيقة، هذه اللحظات صادقة بلا زيف، ليست خيالا، هذا التلاقي موجود بالفعل، هذا الشغف

محسوس بشدة .. ارتوت روحي بقبلة حتى صارت أطراف أصابعي تقطر عطر العشق الذي ملأ روحي وجسدي!

لمس "أنجيلوس" قلادتي وابتسم .. الآن أذكره، هو من قدم لي القلادة النارية بيوم مهرجان "سالوتيس" .. قلادة نارية تبدو كأنها تشتعل عند سقوط الضوء عليها، لم أخلعها عن عنقي من يوم المهرجان .. هو من لمس وشْمي وهو يعقد سلاسل قلادتي فسرى بجسدي نهر من المتعة فاقت حدود الكون .. جلست على صخرة و أشرت له على ملابسي، فأحضرها لي، فارتديتها واقترب مني .. **(وبصوت كعزف قيثارة تغازل الليل)**:

- أنا "أنجيلوس" وأنت "أليجرا"، نجمة تمردت على بريق السماء وهبطت لتنير كوكب الظلام.

- أنا؟!

- لو لم تكوني أنتِ فمن تكون؟

- كيف أعرفك؟!

- لماذا تبحثين بين قوانين العقل عما يفوق قوانين الوجود؟ قوانين العقل سجن وقيد .."أليجرا" أنت لا

تنتمين للمحدود، نحّي القوانين جانباً وستدهشين بما ستعرفينه وما تدركينه...

- مشاعري ترشدني وتكاد تكون إشاراتها مرئية لعينيّ..

- إلام ترشدك؟!

- ترشدني لقلبك كموطني .. لذراعيك كدرعي الحامي.. لعينيك كبحرٍ أغتسل فيه من قيود الوجود وأُحلق بينهما بهجرة للروح تعود بعدها بنقاءٍ لا مثيل له، ولكل ما أشعر به يوجب عليّ الآن أن أبتعد.

- "أليجرا" .. كوني معي بضع ساعات ظلامي لتضيئي عالمي .. فقط ساعات حتى صباح يفارقنا.

- (حكايا الطفولة كانت صادقة، إن المشاعر أبسط كثيراً مما نعتقد .. لم أستطع الرفض، فجعلت من صدره وسادة ونمت كما لم أنم من قبل، وأفقت ونظرت له نائماً على العشب، قبَّلت بعينيّ صدره، وسادتي .. حاول الإمساك بيدي، ولكني غادرت تاركة روحي في شتات، غبت بالأفق وعدت للمملكة)

***

عدت بدون مقابلة "إيفا" .. عدت ولا أعلم ما الذي تملّك روحي وقلبي .. لا أعلم أي جزء مني غادرني أو تكشف عند رحلتي الغامضة .. لا أستطيع أن أحدد!!

لا أعلم هل خنت "ماركوس" ؟ أم خانني عقلي؟ أو أنني اثنتين .. أنا التي تظهر للمحيطين، والأنا التي تتغول بداخلي وتتملكني فلا أعود أنا مجدداً .. الآن أكاد أجزم أن رباط الزواج لا يلائم الأحرار!

قالت لي" إيفا" سابقا قبل الزواج من "ماركوس" :

- الأحرار لا يناسبهم القيد ولو كان قيداً من الماس، أن تُملكي روحك لآخر قيد لن تستطيعي تحطيمه لأنه سيحطم معه قلوباً تخافين أن تؤذيها، فلا تقرري حتى تتأكدي من رغبتك الصادقة.

وكنت أعتقد أن رغبتي الصادقة مع" ماركوس"، ولكنني لم أدرك أن عوالم العشق والجنون واللذات أكبر وأكثر عمقاً مما عرفت بحياتي .. الآن أشعر بأن نصف قلبي معلق بالسماء، والنصف الآخر معلق بواجباتي تجاه "ماركوس" وتجاه المملكة.

واليوم، بنفس موعد لقائنا أمس أنا و"أنجيلوس"، سيطرت علي ذاكرة الروح والجسد، فشعرت بشفتيّ تشتاقانه .. بجسدي يتحرق شوقاً ليستكين بقربه ..

بروحي تهفو لروحه، وقتها أيقنت أني ما ذقت الحب قط قبل لقياه .. أيقنت أن شعوري تجاه "ماركوس" كان التزاماً، كان فكرة بنيت على إعجابي به لصراعه مع البروتوكول وخروجه عن المألوف.

رأيت به ما تمنيته من البشر، من عطف وتواضع ورحمة، وخلطت بين شعوري بالإعجاب والعشق؛ فالعشق إحساس مُبهم لمن لم يحياه، فيتوهم الإعجاب عشقاً، والرغبة عشقاً، والاحتياج عشقا .. وإن كان العشق كلمة جامعة لكل ما فات وأكثر كثيرا، فهي كلمة لا تصاغ بالكلمات.

ليتني انتظرت .. ليتني رحلت .. ليتني ما أضعت لحظة بعمرى بعيداً عن "انجيلوس"!

والآن .. ويلي من شعوري بالخطيئة!! شعوري بتأنيب الضمير، بأنني ألوث بمشاعري نقاء العلاقة التي تربطني بـ "ماركوس" .. لينجيني ربي مما بداخلي .. ليستجيب لصلواتي التي أناجيه وأرجوه بها!!

كنت أتضرع للرب للخلاص من ألم الشتات ولحظات العشق التي احتوتني، وللخلاص من اللعنات التي تدمر المملكة.

كنت كلما نظرت للسماء رأيت عينيّ "أنجيلوس"، وكلما أرحت جسدي أشتاقه حد الجنون، وكلما لمحت عينيّ "ماركوس" أشعر بألمٍ لا أطيقه وأشعر بالخطر الذي يحيطه، فأناجي الرب للخلاص .. كنت أرهق جسدي برقصٍ مستمر كي لا يخون قدرتي على التماسك .. لا أنام إلا بانهيار جسدي من الإرهاق، وحتى عند النوم كنت أرى "أنجيلوس" وأنا أغتال كلاً من روحه وجسده وأصحو بعد لحظة اكتمال لم أستشعرها مسبقا.

(("أنجيلوس" .. اللعنة والرحمة واللذة الشافية)

*****

وبحثت بأغوار عقلي عن حلولٍ لِمَا أقاسيه من تشتت للمشاعر، فلم أجد سوى الغوص في الفكرة والتعمق حتى أصل لعمق قرارها وأرى ما خفي عني، وربما هناك حل آخر.

تجاهل وإخفاء مشاعري تجاه " أنجيلوس"، لأضعها بقبو مظلم وأضع عليها صخرة من الجحيم لأمنع عقلي وروحي من الشتات .. هذا إن استطعت!!

وبالليلة الثالثة من رحلتي، استمررت في المناجاة والتعبد بمحراب صومعتي .. رأيت الإله يحتضن قلبي ويمنحني سكينة وسلاماً .. قضيت ليلتي بشرفة جناحي أستمع لموسيقى تنقلني مسافات عبر الزمان والمكان، غفوت وأنا أنظر إلى نجوم تتلألأ في سمائي وتنعكس على جبيني وجسدي، قبلني القدر ومنحني بركات الحياة، ولمس قلبي "أنجيلوس"، فنبتت زهورٌ تتعبد، وتفجرت ينابيع النور السماوي، فحلت البركات والرحمات.

(انهمر المطر سيولاً تطفئ نيران اللعنات .. ماء النهر أصفي من الكريستال النقي .. العامة يهتفون باسم الملك وتحول الموقف لصالح "ماركوس" وعمّ السلامُ المملكة، وكنت أوقن أنه سلام مؤقت.

التيه

يتحرك "ماركوس" بتوتر وقلق بالغين، تلطخ الألوان ملابسه التي كان يرتديها بعدما خرج من غرفته الخاصة بالرسم، والتي تقع بجناحه الملكي، وهذا ما لم يعتده "فيليب"، فهو يعلم مدى حرص الملك "ماركوس" على أناقة هندامه، واستطاع "فيليب" قراءة شدة انفعاله وهو قادم تجاهه أثناء انتظارة بجناحه الملكي) ..

- كيف انتهت اللعنات "فيليب" ؟

- مولاي .. لا نستطيع تفسير كل الأمور بالعقل، هذه موهبة للملكة، هي مباركة كربيبتها "إيفا لومين" .

- موهبة أن تعتزل الجميع حتى أنا ؟! موهبة أن تستمر بالرقص لساعاتٍ بلا تعب؟! موهبة أن تنهي لعنات "أنطونيوس" بطرق ليست منطقية؟! رأيتها بعينيَّ تتعبد وتتمتم بتعاويذ وطلاسم غريبة فيزيد حجم السحب المُحمل بالماء إلى أن يغطى المملكة كلها، وتشير له فيهبط كالسيل المنهمر فيطفئ الحرائق، ويفيض النهران بماء أنقى مما كان!

- رحمة من الرب تجسدت بهيئة ملكة تحمي المملكة من خطر أنت تعلم أنه يترصد للاستحواذ على المملكة وتدميرها.

- هي التي تحمي المملكة؟ وأنا مهمتي أراقبها وأنبهر بموهبتها إذاً!! **(بسخريه)** .. نعم لتكن مهمتي أن أترك لها حرية الابتعاد عني وأنتظر رجوعها لو أرادت.

- الملكة لم تبتعد عنك لتعود، هي معك، أنت من تزيد المسافة بين قلبيكما بأفكارك "ماركوس" .. حاول أن تتفهم تفردها.

- هي من يجب أن تتفهم رؤيتي للأمور .. هي التي يجب أن تتبع أفكاري.

- أنت اخترت إنسانة حرة، حاول أن تقدر طبيعة عقلها ومشاعرها .. صبرٌ جميل" ماركوس".

- لا وقت للصبر "فيليب".

(يخرج "ماركوس" فيتبعه "فيليب" ليغادرا الجناح الملكي)

***

(دخل" ماركوس" جناحي .. اقترب مني فأبعدت عيني، حتى لا يرى بهما عيني "أنجيلوس"، فأمسك بوجهي بحنان حتى تلاقت عينانا)

- "أليجرا" .. حبيبتي

- "ماركوس "

- ما سبب الابتعاد عني؟ ما سبب اعتزالك ووحدتك، أكثر من سبع ليال وأنا أنتظر عودتك، أغلقت على نفسك أبواباً بلا أبواب .. أنظر لك وأتبعك وأنت بعالمٍ آخر وكأنك تحيين بعالم موازٍ لما نراه.

- حالة لم أستطع تفسيرها كأنني مخدرة لا أقوى على رفض ما أقوم به .. الرب كان يحيطني.

-"أليجرا ".. ابتعدتِ كثيرا وهذا يؤلمني ولا أتحملة.

(بكلمات جادة لا تخلو من رسائل): مساحتي الخاصة "ماركوس".

- أنتِ ملكتي وحبيبتي ومملوكتي وأنا لا أطيق ابتعادك.

- أنا معك ولكني لست لك، لست مملوكة لك "ماركوس"، أنا لا أطيق قيوداً تكبلني كدودٍ نتِن يغزو روحي عبر الهواء الذي أتنشقه، إنني في القيد أختنق، أزوى، تجف مشاعري كورقة خريف تحطمها أدنى

صدمة أو احتكاك .. "ماركوس"، القيد لا يناسبني وأنت تعلم ذلك، أنا دوما أشتهي إطلاق العنان لروحي لتحلق بلا قيود .

(نظر لي "ماركوس" وهمس): كفى تمردا إنني أعشقك**!**

واحتضنني .. أغمضت عيني محاولة الغرق بصدره هرباً من صورة جُسدت على الناحية الداخلية من جفني، (صورة "أنجيلوس" .. حينها أردت أن أضع جسدي وروحي باختبار لتنقشع ضبابية مشاعري، فاقتربت بشهوة جارفة لـ "ماركوس"، كنت أكثر إصراراً على أن أغرق بلذة جسدية تغلق نافذة روحي عن التطلع لعيني "أنجيلوس" .. التقطتُ شفتيه كحية تنسل داخل جسده بسلاسة ونعومة ورغبة تفوق الوصف، تفاعل معي، كانت عيناه تطارد عيني متسائلة، وكانت عيناي تخاطب فيه الجسد بلا منطق ووعي.

وتقلبت أعلى وأسفل وعلى جانبي "ماركوس"، أشعلت جناحي بصرخات وأنات وضحكات وهمهمات عشق ..

نعم فعندما نقارب على الرحيل عن علاقة أيا كانت هي فإننا ننغمس بها حتى نغرق بها تماما وكأننا نناجيها كي تزيد من تمسكها بنا، أو كي نزداد قناعة أنها بكل ما

فيها لا تروي احتياجنا حتى لا نعلق بعد ذلك بالشك وبألم الندم.

(وإن كنت عادة لا أسمح لنفسي بالسقوط بدوامة الندم، فأنا ما أنا عليه .. أنا ما قررته وما اخترته، فإن قبلت بالندم كرهت ذاتي، وأنا أرى أن تقديسي لنفسي هو أول واجباتي الوجودية ولن أتنازل عنها)

***

الفصل السادس

كنت أعلم أنه سلام مؤقت، وتأكدت نبوءتي .. شعرت يوماً بإرهاق وألم لم أعتده مسبقاً، جاء لي الطبيب وبشرني بما جعل قلبي يُحلق بفضاء من السعادة، بشرني بجنين ينمو برحمي، فشعرت أنها رسالة إلهية لتوطيد علاقتي بـ "ماركوس"، رسالة مفادها أن ما بيني وبين "ماركوس" قد فاق العشق وأصبح مُجسداً كطفلٍ تتجلى به معجزة الوجود، فأسرعت إلى "ماركوس" لأبلغه بالخبر السعيد، وعندما دخلت جناحه كان يمسك برسالة وعيناه تشتعلان غضباً :

- سأقتل "أنطونيوس" هذا المجنون، لقد تجاوز كل الحدود، هذا الغبي يخبرني بأن الشيطان قد غرس نبتته بالمملكة وأن هذا الغرس برحِمك "أليجرا"، هذا العابث الكافر بكل القيم والأخلاق سأصلبه أمام القصر ليكون عبرة لكل من تُسول له نفسه التطاول على العائلة المالكه!

(نظرت له بصمتٍ وذهول ثم تلمَّست بطني .. اقترب مني "ماركوس" مطمئنا) : "أليجرا" حبيبتي سأسحق كل من يقترب منك بسوء.

(تكلمت كمسحورة لا أعرف ما الذي أنطقه):

- "ماركوس"، أنا حامل

- حامل؟ من أخبرك؟ ومتى؟

- كنت أشك بأنني حامل فطلبت القابلة، وهي من أخبرتني منذ لحظات .

رفع "ماركوس" رسالة "أنطونيوس" وأعاد قراءتها بصوتٍ عال) :

"اليوم هو يوم شؤم، أنعمت يا "ماركوس" بجسد لوثه الشيطان .. لقد خانتك الغجرية هي و"أنجيلوس"، الملاك الملعون المتمرد المحروم من جنة الرب، وأنت أيها المسكين ترقبها ولا تعلم ما يدور بعقلها وجسدها، لقد غرس الشيطان "أنجيلوس" نبته النجس برحم الغجرية وسيصبح أميراً ثم ملكاً لتتحول المملكة للظلام، ولينهار العالم كما ندركه ولتفتح علينا أبواب الجحيم الأرضي .. "ماركوس"، لقد دمرت ما بناه أجدادك بطيشك وجنونك وقلت لك سابقاً لن يكون هناك وقت للندم، والآن أقولها، لقد مضى وقت الندم، الآن هو وقت الألم وسأهِبك الحل الوحيد، محاكمة علنية للغجرية تظهر الحقائق للعامة ربما تحفظ كرامتك كرجل قبل أن تكون ملكاً وتحفظ المملكة من عبث الأبالسة، محاكمة يا "ماركوس" هذا هو أملك الأخير"

- هذا جنون "ماركوس" .. جنون لا يحتمله عقلي!

- ولا يحتمله عقلي ولا قلبي"أليجرا "..

*

اعتكفت بجناحي .. ابتعدت عن الجميع .. أشعر بوحدة مضاعفة .. أجلس أمام مرآة ضخمة أنظر بها كمن غرق بقاع محيط يرقب السطح باستسلام وهو يهوي بلا أي أمل في النجاة، هل يتسلل الشك لروحي وأنا لا أدري؟! ألف سؤال يجوب عقلي وكل الإجابات مؤلمة، هل أنا فعلا ملعونة حملت معي إثم وجودي الذي لا أعرف أصله؟! أنا لا أدري عن أبي وأمي شيئاً .. شكرت الرب طيلة عمري لمِنحته الغالية، "إيفا"، ربيبتي ورحمتي التي احتضنتني وأنا مازلت رضيعة .. سألتها مرات عدة : أين وجدتني، وهل تعرف أي شئ عن والديّ؟ ولم تجب .. أنا أعلم أنها تخفي شيئاً ولكني اكتفيت حينما قالت :

- غاليتي، هما ما بين السماء والأرض وقلباهما ينبضان بداخلي لأمنحك حبهما وحبي وزيادة .. أنت ابنة الطبيعة، ابنة الوجود، وكل ما ترينه لك به ألف صلة أكبر من صلة الدم وأعظم من الإدراك المحدود.

ويبدو أن أفكاري غلفتني حتى أنني لم أشعر بدخول "ماركوس" لجناحي، إلى أن تسلل صوته كصدى من الجانب الآخر للوجود:

-"أليجرا"، ملكتى ومعشوقتى ومعبدي ووجهتى .. مللت ابتعادك وعنادك .. مللت نظراتك التي لا تمنح قلبي سكينة، أجيبيني الآن وفوراً، لن أستطيع الانتظار أكثر من ذلك، كيف عرف "أنطونيوس" بخبر حملك قبلي؟!

وإن كان خبر الحمل صحيحا فهل كل ما يتعلق بالحمل أيضا صحيح؟ هل لمس جسدك أحد آخر غيري؟ ومن هو "أنجيلوس"؟ أجيبيني بكلمة .. بإيماءة تمنحني سكينة، هل من تحملين ببطنك هو ثمرة عشقنا المقدس؟ هل هو نتاج لحظات ذوباننا الجسدي والتحامنا الروحي؟ هل هو ذروة عطائنا الجسدي أم غير ذلك معشوقتي؟ أصابني الجنون، هلكت في الدفاع عنك أمام عقلي، امنحيني اليقين بكلمة، فقط كلمة، ما قاله عنك الكاهن "أنطونيوس" أصابني بمقتل، أجيبيني معشوقتي هل ما ذكره كذب؟ هل فعلا دنستِ جسدك المقدس ببذور الشيطان فكان ما بداخلك ابنا له؟ أم أن ما ينمو بداخلك ملاك نوراني، هو ابني وأمير مملكتي؟ أجيبيني معشوقتي "أليجرا"؟! (أمسك بذراعي واحتضنني وركع وكأنه يحن لرحمي هربا من ألم يحياة)

*****

"كيف أجيب بكلمة لا أستطيع أن أؤكدها؟! كيف أستطيع أن أكذب وأدعي بأنني على يقين، وأنا لا يقين لدي بنفسي، "ماركوس" ألمي وضميري الممزق، لن أجيب بكذبٍ مُريح، ولن أجيب بلعنة ترسم مستقبل الحياة، سأكتفي بالصمت، ولكني تائهة أبحث عن التفسير .. كيف علم "أنطونيوس" بخبر طفلٍ ينمو بجسدي؟ كيف علم قبل علمي؟ كيف علم بـ "أنجيلوس"؟ من أعلمه بما بقلبي؟ هل هو صادق يتكلم عن علم؟ لا لا أعتقد أنه يعلم وإلا لما وصف علاقتي بـ "أنجيلوس" بعلاقة عشق جسدية، لو كان يتكلم عن علم كان سيصفها بالشغف، بالتوحد الروحي، بالعشق، ولكنها علاقة لم تكلل بالجسد، وهل فعلاً لم تكلل بالجسد؟ كم من مرة اصطحبني فيها "أنجيلوس" لسماءِ العشق!! كم من مرة تلامست أجسادنا باحتواءٍ فاقت متعته كل التصور!!

سحقاً .. ما هو تعريف الخيانة إن لم تكن النشوة واللذة مع شريك آخر بالوجود؟!

ولكن المنطق يقول إن الخيانة يجب أن تكون عن وعي ورغبة وإدراك واختيار ..

وهل فعلا لو ملكت الاختيار لما أقمت علاقة عشق جسدية مع "أنجيلوس"؟ أم أنني سأنجرف مع تيار العشق لمنتهاه؟

ولن أبرئ نفسي عن الخيانة وأنا سُحرت بعشق خاطف خلق بقلبي فوضى العبث والجنون .. أنا من اتخذت وسادتي صدره .. أنا من انتظمت أنفاسي مع دقات قلبه،

كيف أبرئ نفسي وأنا ملوثة القلب والروح؟

إلهي .. أعِني إني لا أعرف ولا أعي ما أصابني، أرسل لي هداية تمنحني يقيناً .. لا تتخلى عن قلبي وأنا بدوامة من العبث .. أحتاجك إلهي .. احتضن قلبي وامنحني سكينة"

***

الآن كل ما يهمني أن أبرئ طفلي من أن يكون غرسَ شيطان كما أطلق عليه "أنطونيوس".

جنيني الغالي، أنت الآن متهم، أهكذا نحن نلقي اللعنات على من لم يتنفس هواءَ الحياة بعد؟!

يا لقدرتنا على وصم الأرواح البريئة بما تعجز الشياطين عن فعله!

لقد استطاع "أنطونيوس" زرع بذرة الشك بقلب "ماركوس" .. لماذا صدقه "ماركوس"؟ وماذا لو كنت خائنة بعرف الكهنة؟ لماذا يُعاقب جنيني ويطالب بمحاكمتي وقتلي وقتله بالتبعية؟ إنها دوامة من الجنون تبتلعني .. أنا لا أستوعب فكرة الإدانة، أوقن ألا براءة مطلقة، بكل القلوب جزء مشاغب لا ينصاع لأوامر العقل، لا ينصاع لقوانين البشر، هذا الجزء له قانون مستقل وحسب علمي هو "اللا قانون".

والآن أنا بعُرفهم خائنة ومدنِّسة لطهر المملكة، كيف تتدنس مملكة بعشق شعرت به بقلبي؟!!

وحتى لو كان بجسدي، ما الذي يؤذي المملكة بذلك، كل ما عليهم فهمه هو أنني انشققت عن قوانينهم، إذن ليبعدوني بعيداً عن مملكتهم الطاهرة، أما طلب محاكمتي فهو جنون وعبث، وأكثر ما يؤلمني هو "ماركوس" بسؤاله لي: "هل كان نبتَ شيطان؟"

ويلي يا "ماركوس"، كم كنت أود لو منحتني الثقة برفض الاتهام، بعدم السماح بمجرد التلميح بأنني خائنة!!

كم كنت أتمنى لو خرجت للعامة لتعلن عن حَملي بفخرٍ يليق بولي العهد! كم كنت أتمنى أن تمزق الرسالة

وترسلها للجحيم! أو تصدقها وتقتنع بها وترسلني بعيداً عن المملكة لأنعم بخلاص وترجيح لما بحياتي من تشتت!

"ماركوس"، كم أرغب بكسر الحاجز الذي بيني وبينك!

كم أرغب بأن أتعرى أمامك لترى مشاعري، لتدرك أنك قد قلصت حجم وجودك داخلى حتى صرت واجباً أخلاقيا لا أملك الفكاك منه!

كم رغبت لوعلمت أنني كنت أحتاج منك عشقاً يليق بي وليس عشقا يليق باحتياجاتك مني!

"ماركوس"، بحجم ألمي، بقدر شعوري بأنك قطعت قيودي ومنحتني حرية التحليق لعالمٍ أكثر حرية، وراحة أكثر للضمير.

****

نعم لم أجب على تساؤلات "ماركوس"، اعتزلت الجميع وذهبت برحلة داخلية لأكتشف ذاتي، كنت أنعم بالنوم تحت المطر عارية، كان جسدي يتلذذ وماء المطر يعزف عليه بإيقاع شديد الانتظام، كنت أقرع الطبول النارية وانا أناجي الروح العظمى وأتمتم بكلمات ما بين حقيقتي وعالم آخر لم يدركه سواي ..

وبدأ تمردي الداخلي يؤثر على شكلي الخارجي، رفضت أن يجدل شعري الغجري، تركته حرا كما كنت قبل قيد الملكية، وتدريجيا تحول لون شعري الأحمر القرمزي إلى اللون الأحمر الناري.

كنت كتلة من اللهيب تتألق وتزداد اشتعالا يوما بعد يوم

***

علاقتي بـ "ماركوس" كانت علاقة غريبة بلا تعريف، فنظراته لي دائمة التساؤل وأنا لا أجيب سوى بنظرات التحدي، كان تحدياً لأكتشف أغوار نفسه .. أردت معرفة أقصى درجات صموده، وما هي نقطة اشتعال غضبه؟ وإلى أي مدى سيصر على المعرفة وسيبحث عن اليقين ببراءتي أو إدانتي؟

أردت أن يأخذ موقفاً ويعترض أو يقبل، ولكنه كان كما توقعته، صاحب ردود أفعال بلا هوية وبلا حزم، مثل رد فعله على لعنات "أنطونيوس".

"ماركوس" متردد، يقف على الحياد، يفكر حتى يموت الانفعال.

عندما تزوجنى اعتقدت أني أمام شخص متمرد على القوانين، صاحب فكر خاص، يخاطر بكل شئ لأجل

الفكرة التي يقدرها، غير أنني بعد الزواج علمت ما لم أكن أعلمه .

إن البعض قد يبدون حازمين متمردين للوصول لغرض يريدونه ولكنهم لن يحاربوا لفكرة .. لن يخاطروا بهدم معتقد .. هم فقط يريدون تحقيق أمنياتهم ورغباتهم وأما ما بعدها فهذا لا يهم.

"ماركوس" أراد الزواج مني، ففعل، ولكنه لم يستطع محاربة الكهنة، ولم يستطع التصدي لهم ولو بمخاطبة العامة.

***

استمرت المناورات والمراوغات بيني وبين "ماركوس"، وأنا أشعر بانقضاء كل لحظة بيننا بأن رابطاً من الروابط التي كانت تجمعنا قد اهترأ وقارب على الانقطاع، فصار ارتباطنا إطارا على برواز فارغ بلا محتوى، وحينها أيقنت أن هذا الوقت هو الوقت المناسب لطلب الانفصال عن "ماركوس"، فذهبت له بجناحه .. فتح لي الحرس ووجدته ينتظرني وكأنه يعرف بقدومي ..

- "ماركوس" .. أعتقد أن الوقت قد حان لنفترق، الوقت قد حان لأعيدَ لقلبي سلامه المفتقد من يوم وجودي بالمملكة.

(نظر لي بعيونٍ خالية من المشاعر):

- تكلمي عن أسباب رغبتك بالفراق "أليجرا"

- الخوف "ماركوس".

- مم؟

- من نفسي .. من الوجود .. من عدم اتساقي مع ما يحيط بي.

- التأقلم طبيعة الوجود، التحور والتحول من حالة إلى حالة هبة الرب لنتمكن من البقاء، لماذا لا تستطيعين التأقلم "أليجرا" ؟

- لأنني "أليجرا" .. لا أملك القدرة على دفع نفسي للتأقلم مع ما يناهض عقلي وروحي .. لا أملك القدرة على إيقاف عجلات الزمن لأبقى منبهرة بما خفتت بعقلي أنواره .. لا أستطيع دفع نفسي ليقينٍ باهت وقانون يبيح الظلم .

- لم أطلب منك التأقلم مع ما يطيح بثوابت مبادئك إنما طلبت منك الاستمرار، طلبت منك أن تكوني صادقة

كاشفة لما بنفسك، طلبت منك "أليجرا" أن تتوقفي عن الخداع.

- لم أخدع أحد .. لم أخدعك "ماركوس"!

(اقترب مني وبعيون تقطر ألماً) : خنتِني "أليجرا"؟ (قدماي تتزلزل .. أنا مذنبة): قطعت مواثيق زواجنا، فأنا ما عدت أشعر برضا القلب والروح .. أنا ما عدت أتخيل مستقبل حياتي معك،غادرك قلبي "ماركوس".

- غادري الآن "أليجرا".

(غادرت وأنا أشعر بارتياح ولو مؤقت، لقد استطعت أن أقرر .. الآن عدت لنفسي .. أنا لا أطيق قيد الارتباط وأشعر بأن قلبي معلق بآخر)

***

لم يتكلم "ماركوس"، لم يعترض، لم يوافق، لم ينفعل، فقط جلس صامتاً إلى أن هاجمه النوم وهو على أريكته وغاب بعالم الأحلام.

(سمع ضجيجاً يحيطه .. أصوات دعوات وصلوات وأمنيات بسلامة الملكة، شعر بتوترٍ شديد واقترب ليقف أمام "أليجرا" .. "إيفا" تقبض على يدها، وصوت تنفس

"أليجرا" العالي يقطع حبل أفكاره ويزيده تشتتا، وتكلمها "إيفا " : غاليتي .. أتشعرين بألم؟

- لا أمي الغالية.

قدمَا "أليجرا" مفتوحتان مغطتان بشرشف باللون الأزرق .. يقترب رجل غريب، لم يره "ماركوس" من قبل، يجذب الشرشف ويشير لـ "ماركوس" ليمد يديه ويتلقف الوليد من جسد "أليجرا"، فيمد يديه ولكنه يشعر بحرارة شديدة، فينظر ليديه فيجدهما تحترقان .. ألم شديد، ثم يخرج الوليد مشتعلاً من جسد "أليجرا"، ثم يتجسد ككائنٍ قبيح تقطر منه الدماء، فتتعالى صرخات "ماركوس" حتى يصحو من نومه فزعاً.)

يطلب حضور "أليجرا" ويقص عليها ما رأى .. كان كمن ألقى بكرة من النار بقلبها.

***

قَصَّ عليّ "ماركوس" حلمه الذي آلمني بشدة، لظلمي وظلم جنيني بلعنات "أنطونيوس" .. كنت أعلم أن ما رآه "ماركوس" له علاقة مؤكدة بالتأثير النفسي لكلمات "أنطونيوس" وربما أسحاره ولعناته، وقررت أن أعتكف بصومعتي بعيداً عن كل المهاترات التي تحيطني من كل جانب، كنت أنتظر فراقاً يريحنى، وقد

طلبته فعلاً، ولكن "ماركوس" قد أغفله أو تغافل عنه .. كنت أصرخ لاعنة أفكار وأسحار "أنطونيوس".. لعنت أسلحة الفضائل التي أصبحت سيوفاً حاضرة لنَحر رقاب كل من استجاب لطبيعته الإنسانية، لكل من لم يتدنّ لعفن قلوبهم، وكنت أبحث عن حلٍ يلائم عقلي، ووجدت الحل الأقرب للصواب، العودة لما قبل الحضارة المجنونة التي أحاطت قلوبنا وأجسادنا بأسوار من العادات والتقاليد والفضيلة المصطنعة، لنتوهم أننا الأفضل بين الكائنات .. وهمٌ مريح محبب عشقناه لأنه يمنحنا سعادة زائفة، فنحن أبناء الحياة وأبناء الطبيعة، فلم نتعال على حقيقتنا وهويتنا الصادقة الصادمة، ولكنه حل خيالي التحقق، فغرقت بوحدة وآلام لم يخرجني منه سوى عيني "أنجيلوس"، فهي رفيقي الدائم ومؤنسي الوحيد.

***

يجلس الملك "ماركوس" وتبدو عليه كل أمارات الألم، يدخل "فيليب" جناحه :

- ملكي الغالي "ماركوس"

(يتكلم "ماركوس" كمن يحادث نفسه):

- مؤامرة أكبر من التصور أو خيانة قاتلة، أنا الآن بدوامة من الشك، بحر من التيه ولا أعرف لي شاطئ

نجاة، أجبني "فيليب" من هو "أنجيلوس"؟ وكيف علم "أنطونيوس" بحمل "أليجرا" قبل أن أعلم وقبل أن تعلم هي؟! لماذا أحلم بهذه الأحلام المفزعة التي تقتل جسدي وروحي؟ أنا كمن يستمر في السقوط بلا نهاية، قلبي يشعر بخفقان السقوط المستمر وهذا مؤلم حتى أني اشتقت للارتطام، الخوف يقتات على روحي "فيليب"

- أأنت خائف على المملكة أم تريد ان تتأكد من براءة الملكة؟ فكر في الدوافع.

- أي دوافع "فيليب"؟

- لا تنس "ماركوس" أن الملكة هي التي رفعت عنا لعنات "أنطونيوس"، فكانت السبب المباشر لإحباط محاولته في الإطاحة بك والاستيلاء على الحكم ولهذا يرغب بتدميرها .

- حتى رفع اللعنات سؤال هائل خلق بعقلي علامة استفهام وتعجب بلا إجابة، ثم طلب "أنطونيوس" بمحاكمة علنية للملكة.

- إنه وقح تجاوز كل الخطوط الحمراء .. المحاكمة تعني الموت بعرف "الباروتنس"، الاتهام إدانة بمنطقهم.

(يستمع "ماركوس" وكأنه بعالم آخر ليعلن عما يشغل باله) : أريد منها جواباً واضحاً يريح قلبي.

- تريد إجابة لك أم للعامة؟

- أنا الأهم، لو اقتنعت سأحارب المملكة كلها لأجلها ولن أسمح بأي مساس بها.

- ولو لم تقتنع، ستتركها لتنهشها لعنات الكهنة وجهل العامة ؟!

- "فيليب" .. أتريد توجيه عقلي؟

- مولاي أريد أن أريك الحقيقة كما هي.

- وما هي؟ هل تعلم أنت ما هي الحقيقة؟ إن "أليجرا" تطوع النار، هي تراقصها، رأيت جسدها بحالة ذوبان وانتشاء لم أرها مسبقا، ذهلت من إحساسها بها وقدرتها على محاربة لعنات القدر!!

(بلهجة الأب المحب لابنه يخاطب "فيليب" "ماركوس"): وهل للقدر لعنات أم أسحار وخيالات وأفعال من يرغب بتدمير المملكة؟

- أنا تائه بين ما رأيته وهي لا تمنحني تفسيراً، والتفسير الوحيد الذي أمامنا هو تفسير "أنطونيوس".

- "ماركوس" .. هل ما رأيته إدانه للملكة أم موهبة من الممكن أن تكون منحة من الرب؟

- لماذا لا تدافع عن نفسها؟

- ربما ما زالت تصدق بعشقك لها، أو لأنها أكبر من أن تقدم تبريرا أو شرحا لوهمٍ في عقول لا تستطيع استيعاب الهبة الإلهيه.

- أنا أعشقها "فيليب"، فقط أريد إجابه.

- ضغط العامة أثر بك؟

- جنون "أليجرا" .. حالتها المستعصية من التمرد، من الممكن أن يكون سبباً في وصول "الباروتنس" للحكم وإن حدث ذلك ستكون نهاية لأية فرصة في الخلاص من أفعالهم وأحكامهم وقوانينهم التعسفية التي أدت لجهل العامة، ولأكون صادقاً فالمهم على الإطلاق هو أن يقتنع عقلي بتوضيح من "أليجرا " .

- لنبدأ بالقلب، قم بزيارة جناح الملكة وسلها علها تجيب

- لا تريد الإجابة، لا تريد أن تتفوة بكلمة.

- وعيناها ألم تحادثا قلبك؟

- تبتعد عني وكأنها بعالم آخر.

-"ماركوس" .. هي تبتعد لأنها تتألم، هي تائهة شاردة تحتاج منك أن تكون شاطئ الهداية لما بقلبها من شتات وضياع، فلا تكن داعما لأفعال "أنطونيوس"، هذا الكاهن النهم للسلطة الذي يمكنه أن يقوم بأي عمل للوصول لها، حتى السحر الأسود وإطلاق اللعنات.

- بعض الأمور الخفية مؤلمة

- افتح الباب الخلفي بعقلك، "باب الأحرار"، الأحرار من التقيد بالمعروف والمألوف، صدِّق أن العالم ليس فقط ما تراه.

- كل ما أحتاجه كلمةً ليطمئن قلبي.

- لن تسمعها من الملكة الغجريه" أليجرا ".

- فلتكن إذن محاكمة علنية، حينها ستُجبر على التوضيح والشرح.

- كبرياؤك أهم من مكانة الملكة ؟!

- العشق سم يجري بدمي، لا بد أن ترد على أسئلتي، لابد لي من إجابه.

- إن حاكمت الملكة خسرتها للأبد .

- "أليجرا" أصبحت ملكي، كيف أخسر ما أملك؟ وخسارتها لن تحدث "فيليب"، جنون عشقي يجري بدمها .

- لا تراهن على العشق عندما يكون به انتهاك للكرامه.

- وكرامتي أنا ؟!

- مولاي .. كلها اتهامات عقيمة حتى الآن، لا أجد لها أي دليل اتهام، أنتم تدينون كل ما لا تفهمونه، أين دليل اتهام "أليجرا"؟

- عيناي.

- رأيت ما أرادك "أنطونيوس" أن تراه، أخبث الأعداء من ينمو بعقلك فيتغذى على يقينك بمحبيك.

- وأحلامي؟!

- ندين الملكة بسبب حلم؟!! آه عفوا هذا حُلم ملك!

(يستدير "فيليب" ويغادر الجناح وعلى وجهه كل معاني الألم والخذلان).

الفصل السابع

اللاتيك

يومٌ عصيب .. ألمٌ بجميع أنحاء جسدي .. عقلي مشوش وعيناي شاردتان، كل الأمور أصبحت متداخلة وأصبحت كمن يراقب نفسه من بعيد، كرسامٍ يقف بترقب ليلتقط إحساس المشهد ليستطيع دمج ألوانه ونقل انطباعه عنه، أنا هكذا أرقب من بعيدٍ نفسي و"ماركوس"، أرقب آخر تطورات أحداث حياتي .. أفكر كثيراً بـ "أنجيلوس"، وأفكر بما يربطني به، هذا الرباط السحري الذي يلتف حول كينونتي كمن سقط بالأسر .. خرجت لشرفتي ونظرت للسماء، كانت النجوم ثابتة بمواقع ليست بمواقعها .. عينا "أنجيلوس" تزين السماء، نعم أنا أراه بوضوح، ابتسمت ومددت يدي للسماء، فاقتربت مني يداه، تلامست أيدينا ومسح على وجنتي وتألقت نجمتان ألوانهما مزيج لا يتقنه إلا الرب، جاءتا واستقرتا براحة يدي .. نظرت لشرفة "ماركوس" فرأيته ينظر لى، دخلت جناحي وحاولت الاسترخاء فلم أستطع.

لم تمض إلا دقائق حتى جاءت وصيفتي "صوفيا" تقف أمامي بخجل ولا تستطيع النطق ..

- ما بكِ "صوفيا" تكلمي؟

- مولاتي، لا أملك إلا الاعتذار سامحيني لا أستطيع الكلام.

- "صوفيا"، لم أعد أحتمل الترهات تكلمي الآن أو اخرجي فوراً من هنا!

- مولاتي أكرر اعتذاري، اعتقدت أني أستطيع أن أتكلم سامحيني .

- إذن غادري جناحي فوراً "صوفيا".

(همت "صوفيا" أن تغادر الجناح إلى أن وصلت إلى الباب، ثم عادت لترمي بنفسها تحت قدميّ وتتكلم وهي تجهش بالبكاء) :

- مولاتي سامحيني، لقد أمر الملك "ماركوس" بأن تنتقلي لـ "اللاتيك" الآن.

- ماذا ؟!! إلى "اللاتيك"؟! **(شعرت بأن عقلي يكاد ينفجر)** : أنا أذهب إلى "اللاتيك"!! هذا جنون .. جنون! لا أنت تهذين "صوفيا"

حاولت الخروج مسرعة لأتوجه لجناح "ماركوس" فأوقفني حارسان يقفان بين باب جناحي وجناحه ليمنعاني من الدخول، عدت وأنا أكاد أجن!

(صرخت بحدة وأنا أتوجه لشرفتي): لماذا .. لماذا "ماركووووووس"؟

تبعتني صوفيا وهي منهارة تماما ..

- مولاتي .. اهدئي أرجوك

- لماذا "صوفيا "؟ لماذا أسجن؟ ما هي تهمتي؟

- مولاتي .. شاهدك الملك "ماركوس" وبعض من الكهنة والعامة منذ قليل وأنت تناجين السماء فتهبط لك قطعتان من النور المشتعل، فخاف العامة وحينها أمر الملك "ماركوس" بإيداعك بـ "اللاتيك"، ربما خوفاً عليكي مولاتي، هو يعلم أن الكهنة سيستغلون الموقف، فما رأه العامة سيدعم ادعاء "أنطونيوس" بأنك مشعوذة، وأنت تعلمين اتهاماته الظالمة، وستقع فتنة لن نستطيع الهرب منها ومن الممكن أن تدمر المملكة .

- يسجنني بأية تهمة؟ أين "ماركوس" أرغب بلقائه الآن وفوراً؟

(غادرت "صوفيا" لتُخبرَ "ماركوس" برغبتي بلقائه وجلست أنتظر)

يمر الوقت كالسلحفاة، كسيحة تعد ذرات الرمال وهي تزحف صاعدة على جبل رمل شديد النعومة .. تتصارع

الأفكار بعقلي، إلى أن دخل "ماركوس"، شعرت بالعجز عن الكلام، فمِن كم الكلمات التي أريد التفوه بها صمتُّ ونظرتُ له، وإن كانت نظراتي تحمل ألف تساؤل)

- "أليجرا" .. طلبتِ لقائي؟!

- نعم

- تكلمي .. قولي كل ما يجول بخاطرك "أليجرا"، لماذا "اللاتيك" أليس كذلك؟!

(صرخت بنفاد صبر) : "اللاتيك" .. لماذا تريد وضعي بـ "اللاتيك"؟ أريد إجابة ؟

- طرحت عليكِ سؤالاً وكنت أريد إجابة فلم تمنحيني إياها.

- كان اتهاماً وليس بسؤال.

- أجيبيني إذن!

- أجبني أنت أولاً لماذا تفعل هذا بي؟!

- لا أفعل شيئاً .. أنا أحاول حمايتك من القادم .. أنت لا تعلمين كيف ينظر لك الآخرون؟ أفعالك وجنونك فاق التصور، السحر الذي تمارسينه ولا نستطيع استيعابه سيسبب الجنون للكهنة والعامة.

- أنا لا أمارس الشعوذة أو السحر "ماركوس"، أنا أناجي الرب وأنت تعلم أنني غجرية حرة تفعل ما يمليه عليها حنينها للوجود، لا أستطيع كبح جماح نفسي، إن أردت الرقص أو التعبد او التفاعل مع الأرض والسماء وما بينهما .. أنت تعلم أنني لا أستطيع أن أتقيد بقيود العبيد .. أنت تعلم أنني هكذا من لحظة لقائنا والآن تدينني لهويتي، لتركيبتي؟!

- الفرق شاسع بين أن أعلم وأن أرى بلا تفسير، وضحي وتكلمي كيف انتهت اللعنات بإشارة منك؟ كيف علم "أنطونيوس" بخبر حملك قبلي وقبلك أنت شخصياً؟ فسري لي ما تفعلينه بشُرفتك، رقصك المجنون ونومك عارية والنيران التي تحيطك كريش نعام لا يمسَسكِ بسوء، بل يُشعرك بالراحة والألفة؟! شعرك الذي يكاد يشتعل من الوهج الذي يغلفه؟ أريد إجابة لأمنحك إجابة "أليجرا".

- كيف أستطيع أن أجيب عما لا أعلمه .. أنا لا أعلم ما الذي يحدث لي .

- إذن لربما ما يقوله "أنطونيوس" به شئ من الصدق بأن بك سحر ما، شئ ما لا نستطيع تفسيره.

- لا "ماركوس"، أنت الذي لا تستطيع تقبُّلي كما أنا .. أنت تحاول اختلاق الأعذار لانصياعك لما أمرك به "أنطونيوس".

- أنا لا أنصاع لأحد "أليجرا"، أنا فقط انصعت لقلبي حين عشقت.

وقتها ابتسمت وواجهته بما أراه فيه، كنت كمن يزيل ورقة التوت عن العرش ومالكه ..

- "ماركوس"، أنت يا ملكنا المعظم، أتعلم ما هو العشق؟ العشق يا "ماركوس" هو اليقين بالآخر، العشق هو أن تترك التفاسير العقلية وتستسلم للمشاعر، العشق سِحر وأنت تدين السحر، العشق إيمان مطلق وسلام مطلق وأنت صاحب إيمان مهتز وسلام مفقود، أنت تنصاع لأحكام "الباروتنس" حتى لو حاولت إخفاء ذلك، لكنها الحقيقة، الآخر يستطيع أن يطوع أفعالك وأقوالك طبقا لما يريد، أنت يا ملكنا المعظم دمية بيد كهنة "الباروننتس".

(اقترب مني "ماركوس" وأمسك بوجهي ونظر بعيني وعيناه تشتعل غضباً وسألني كمن قرر فك أسر ألمه رغبة بإجابة شافية) ..

- ومن هو "أنجيلوس" ؟

(سؤاله الأخير الذي كنت أتوقعه أزاح الستار عن حرب حدودها كل أركان عقلي)

- "أنجيلوس"؟ تسألني عن "أنجيلوس" ؟ لا "ماركوس" لن أجيب.

- كنت أتوقع الإجابة "أليجرا"، كل ما قلتيه جنون وعبث، وإلى أن أعلم يقيناً ما تخفينه، ستكونين بـ "اللاتيك".

(يفتح له الحارسان باب جناحي ليشير لهما باصطحابي لـ "اللاتيك")

كنت كلما خطوت خطوة وأنا خارجة من القصر ألعن ساعة لقياي بـ "ماركوس"، هذا الغبي الذي يتعمد أن يطوق رقبتي بطوق العبيد الذي لا يليق بي.

وقفت العربة الملكية أمام مبنى كالقلعة القديمة يقع بعيداً عن المملكة نسبياً، وهبطت من العربة واصطحبني الحراس لزنزانتي، لم أكن أستطيع رؤية أية تفاصيل ولكنني رأيت روحى تموت، وأنا بهذا المكان الملعون رأيت كمًّا من القهر والظلم فاق تصوري، أشعر أن الجدران تضيق عليّ حتى تكاد تُهشم عظامي .. السقف يقترب من رأسي فتكاد تنفجر، أتوق للمس عشب الأرض، الآن أتوق لصوت "إيفا"، لوجهها الطيب،

لحضنها الآمن، أشتاق لروحي قبل هذا المهرجان الملعون.

جلست على سريرٍ بالغرفه الكبيرة أحملق بالفراغ إلى أن نمت بأحضان "أنجيلوس ".

***

الفصل الثامن

موسيقى الرحيل

"ريم" هي أنا، رحالة عابرة بكوكب الجنون .. عدت لشقتي، ألقيت بنفسي على أقرب مقعد، بحثت بحقيبتي عن سيجارة أحرقها وأحترق معها .. نفَساً أتنشقه ليملأ جسدى، ليشاركني وحدتي وأطلقه بالفضاء لأحرره من سجن ألمي، تجرعت رشفات ماء بعد قرصين من منوم اعتدت عليه بعد رحيل والدي ومعلمي "محسن سليم"، عازف التشيللو والمؤلف الموسيقي الأشهر بدار الأوبرا، كان يمتلك مدرسةً لتعليم الموسيقى لنشر روعتها بعالم الموتى الذي نحياه، كان يقاوم جنونَ العالم بمعزوفة تنتزع الشرور من النفوس وترتقي بها لفضاءٍ رحب من الروعة والسلام، علمني حرف الموسيقى قبل حرف الهجاء، فتح لي أبواب الإنصات لموسيقى الكون لأجسدها بكمانٍ عشقت معانقته منذ نعومة أظافري، لماذا غادرني بلا إنذار مسبق؟ لماذا لم يعلمني كيفية الحياة والنجاة بدونه؟ لماذا؟ كلمة بلا معنى، الرحيل على موسيقى الرحيل لا يغادر عقلي، مشهد اغتيال روحي لا يغيب.

***

رحيل

كان اليوم الأول لعزف مقطوعته الأحدث، "رحيل" هكذا أسماها حينما انتهى من تأليفها .. أكان يعلم بموعد الرحيل أو أن الكلمات تستدعي الأحداث والأقدار؟ صدقا لا أعلم، ولكني أيقنت أن بداخلة حساً ملائكياً صادقاً، نظراته لي وكلماته كانت ألف رسالة، لم أعِ معانيها إلا عندما اغتال قلبي ومزقه الفراق ليبقى منه أشلاءً تنبض لتبقيني على قيد الحياة.

بدأ العزف وسرت موسيقاه كالسحر، لتنتشي الأسماع وتطرب القلوب لموسيقى شديدة الصدق.موسيقي تعيد ترتيب الحواس فتجعل الآذان ترى والعيون تسمع والمشاعر تحلق كالطيور بهجرة لمواطن الجمال بلا أية رغبة في العودة .

معزوفة تتداخل مع الطبيعة وترسم لوحةً للخريف والرحيل، وبآخر جملة موسيقية نظر لي وكأن روحَه معلقة بروحي، فبادلته النظرة وشعرت بقلبي يخفق كمن يسقط من السماء السابعة، لقد أدرك قلبي ما لم أدركه. ابتسم والدي كأنه يقبل قلبي، ويومئ بعينيه برسالة سلام، استطعت قراءة شفتيه وهما تهمسان : "حبيبتي"

وسقط وهو يحتضن التشيللو فانهار عالمي وتوقف الزمن .

جريت لأسابق الموت والفراق .. بعدت المسافة بين المسرح وموقعي، الذي يتقدم الصفوف، كانت أميالا من السير على الرمال، عيناه تبحثان عن عينيّ اللتين لا تفارقانه .. أمسكت بيديه واحتضنتهما .. استشعرت الموسيقى التي كانت تنساب من بين أصابعه، أكاد أسمعها تصحب روحه برحلة للأبدية، مُخلفةً صوتَ حفيفِ الأشجارِ بيومٍ عاصف، وسكونَ قبورِ موتى منذ آلاف السنين، ثم .. سكون شديد الصخب ثم سكون.

***

روح أبي لم ترحل بيوم رحيله، فهو يسكنني ويحتويني ليلاً ليمنح قلبي سكينة وسلام، رسائلنا لا تنقطع، أحكي له الأسرار .. أبتسم لجملة موسيقية يرسلها ليعبر بها عن سعادته بالتحليق بالكون، أرسل له رسائل احتياج ورسائل احتجاج، ولكن أقسى الرسائل على قلبي (رسائل الصمت) التي أشعر بها عندما تفارقني الموسيقى، ويغيب الإلهام والوحي، فاشعر بفراقه يتضاعف، وبأن قلبي يبكيه دماً فأعود مُسرعة لأحتضن القلم والقوس والأوتار؛ لأجعل من ألمي رحِماً للإلهام،

فاخلق عالماً من الجمال يعينني على قبح الوجود بدونه، قبح الوجود الذي أشعر به منذ يوم ولادتي، ألمي وإحساسي الدائم بالفقد، الذي لا أعلم له تفسيراً، ولكن قلبي كان دوماً يتألم ويعاني بلا سببٍ واضح، حِمل كان يقبع بداخل روحي بلا مبرر، نظراتي بها الكثير من الحزن حتى وأنا أبتسم، عشقي للموسيقى التي تقطر دمعا، ولعي بالرقص الذي يمنح روحي تحرراً من سجن الجسد، مشاعر تجتاحني ولا أدري كيف تتملكني! حتى أنني صادقت غربتي الروحية وانعزلت بـ "منفاي الاختياري"

*****

الفصل التاسع

إيفد "أوراق التاروت"

إلى يوم قابلتها وأنا اسير بشوارع الزمالك (مقهى عتيق، كراسي منحوتة كجزوع الشجر، قهوة على الرمال رائحتها ساحرة تجذبني كرائحة غرفة والدي، فاقتربت أبحث عن كرسي وسط الزحام، تناديني سيدة ملابسها بها تقريبا كل ألوان الكون، (جيب) مزركش، وبلوزة سوداء، يحيطها منديل شديد الحمرة مثل حمرة شفتيها، شعرها أسود اللون به خصلات بيضاء تزينه، تضع ماكياج أو لا تضع، لا أستطيع الجزم ولكني لا أملك أمام طلتها إلا أن أعجب بثقتها بنفسها وابتسامتها شديدة الرقة والعذوبة .. كانت تجلس بمفردها)

- آنستي .. تفضلي هنا فلا توجد أماكن للجلوس .

- شكرا إذا سمحت لى بأن أشاركك طاولتك ؟

(ابتسمت السيدة وابتسمتُ لها، ثم تفحصت أوراق التاروت الملونة التي رصت بشكل بديع أمامها .. ورقة لملاك بجناحين مشتعلين، وورقة لعرافة تمسك بيديها زهورا ذابلة، وورقة أخرى لشيطان يبعث بإشارة تحذير، كنت أمام حالة جاذبة لكل ما بداخلي من أفكار!

- "إيف" ... اسمي "إيف"

- "إيف" .. أنا "ريم"

(لا أعرف سر سعادتي وقتها)

- أتحبين أن أقرأ لك ما ستجود به أقدراك؟ هي كلها هنا نقشت برموز تتغير حسب ما تريدين

- وهل نستطيع تغيير الأقدار "إيف"؟

- نعم نستطيع إن فهمنا قواعد الوجود

- إذا لتقرأي لي طالعي لربما أفهم القواعد وأمنح نفسي سعادة. (اقتربت بكرسي من "إيف" ومن موقعي الجديد لمحت بجانب المقهى محلا عتيق الطراز تعلوه لافتة مضاءة باللون الأصفر الباهت كتب عليها، (جاليري رحال)

اختطفت نظرة على الجاليري وأنا جالسة، ظهرت هذه المقتنيات العتيقة من خلال فاترينة شفافة يضيئها أربعة مشاعل، حاولت النظر أكثر لأتبين أهذه المشاعل مضاءة بالنار أو باللمبات، إنها نار، هي فكرة ساحرة أن تضاء بالنار، فقد جذبت انتباهي ولفتت نظري بشدة، فحركة النار التي تتصاعد حينا وتخفت حيناً تسحر الناظرين، النيران صادقة، هي فعلا كذلك فإن لفحها الهواء تألقت، وإن غادرها خفتت حتى تكاد أن تموت، هي لا تحتاج للادعاء بأنها متوهجة وهي تحتضر.

أعتقد بأن الوجود لم يعتنق الزيف يوماً، أما نحن فقد نَخَر الزيف قلوبنا وأرواحنا حتى أصبحنا كائناً مهلهلا هشاً، يرغب بالكمال ويطفئ زر البراءة والعفوية حتى بكل لحظاته وانفعالاته فصارت الحياة كلها ادعاء بكمال واهٍ، كمال أكثر حدة، بلا خلل يمنح الحياة بصمتها الخاصة، لكنني دوماً عشقت الأشياء بريئة عن الكمال، تتحلى بندوب الوجود، عبق الجاليري أخذني وسيطر عليّ، ولكن سطوة شخصية "إيف" ردتني لمقعدي بسلاسة ..

- "ريم" إلى أين غادر عقلك؟ وماذا رأيت خطف إدراكك ؟!

-لا شئ أنا مستعدة لقراءة طالعي .

- أنتِ دوماً مستعدة متأهبة لما سيأتي

- عفوا .. لم أفهم .

- ليس الهدف من كلماتي أن تفهمي، الأهم هو إحساسك "ريم ".

جمعت "إيف" من على طاولتها أوراق التاروت بلونها الأزرق وحوافها الحادة كسكينٍ متأهبٍ للانقضاض لقبض الأرواح وأكملت : المسي الورق واختاري ثلاث

ورقات ثم سبعاً أخريات.

لمست الأوراق واخترت ثلاثا ثم سبعا، فأخذت "إيف" مني الثلاث ورقات وطلبت مني الاحتفاظ بالسبع ورقات الأخريات، ثم فتحت "إيف" الورقات الثلاث، وبنظرة تغوص بها لأعماق قلبي، وبصوت يمتزج فيه الحنان بالحكمة سمعت كلماتها تتغلغل عقلي:

الأولى: عشق يجمع بين روحين بقلادة من النار

الثانية : تاج من الياسمين يصبح قيدا وأسوار

الثالثة : رحيل بلا اختيار .

ثم أخذت مني السبع الأخريات، وبعد التطلع إليهم، تقترب بصوتٍ أقرب للهمس، ونظراتٍ مُحدقة لا تهتز كمن تطال كل خلايا جسدي وكل كينونتي ..

- ستكسرين قواعدَ الزمكان، ستتنقلين بذكرى ماضٍ لم ينتهي للآن .. سيأتيك وحي وحلم وذكرى وصورة تجمع بين النقيضين والعاشقين .. ستنزعين رداء الجسد وستصحب خطواتك السعادة والآلام .. هنا اختيار وقرار!! ولأبد الآبدين أثق بقدرتك على خرق قواعد تقيد قدرات الإنسان، فحطمي الخوف والصمت والتعامي عن واقع الوجود، وامحي النسيان .. اتبعي الروح فأنت حلم لروحين بجسد آدم وروح العصيان .. كوني بسلام يا ابنة النور والنار.

الفصل العاشر

"رحال جاليري"

أنهيت بروفات حفلتي القادمة مبكراً، وكنت قد قررت أن ألقي نظرة بمحل الأنتيكات الذي رأيته أمس، و"إيف" تقرأ لي أوراق التاروت: أين هي (الكوفي) التي جلست عليها؟ ربما تغلق نهاراً، وربما انشقت الأرض وابتلعتها مثلما ابتلعت "إيف" بعدما قرأت لي الطالع، واستدرت لأجدها اختفت .. المهم أن الجاليري موجود .. "رحال جاليري" ..

دخلت الجاليري من البوابة الزجاجية، لتشتعل المشاعل فور دخولي، تفحصت القطع المرتبة بعناية فائقة (وفوق بعض القطع يوجد كتيب يوضح تاريخها، ومن امتلكها سابقا، وسعرها وكثير من التفاصيل)، فلطالما كان لي شغف بكل ما كان قديماً، أتنشق به عبير سحر الماضي فأسترجع روحي لتبعث من جديد، لا أكتفي بالنظر لها ولكني أتحسس القطع كمن يبحث عن إحساس تنقله له قطعة عتيقة، شعور كالحنين لبيتٍ فارقتُه منذ زمن، قطع من أحجية مفقودة، لا أدرك ماهيته، نظرات ولمسات متفحصة لقطع تحكي مئات، وربما آلاف القصص .. إلى أن تجمدت أمام لوحة، لوحة لي أنا! قلبي يخون ثباتي بدقاته العنيفة، أعود لأتفحص اللوحة، إن المرأة التي بها تشبهني، هي أيضا تملك شعراً غجرياً شديد الحُمرة، نظراتها تائهة، شفتاها بلون النبيذ

المعتق يكاد يسكر الرائي، يحيط جِيدها عقدٌ من الأحجار الكريمة الحمراء، كحلقة من نار تنعكس على وجهها فتزيده بريقا وجاذبية، يقف خلفها بهيئة مهيبة رجلٌ شديدُ الوسامةِ والأناقةِ والسحر، يمسك بيده خنجراً يقطر دماً.

تحيط بالمرأة والرجل هالة من النجوم، عندما أمعنت النظر بها ظهرت بها عينان شديدتا العمق، عينان تحتار إن كانتا تنظران للمرأة أو تحرسانها وكأن إله السماء يرعاها!

اقتربت أكثر من اللوحة، نظرت لوجهِ المرأة عن قرب رغبة بأن أتأكد من الشبه الذي يجمعنا، ولكني صُدمت مما رأيت، إنني أكاد أنظر لمرآة، إن المرأة تملك كل ملامحي، حتى نظراتي التائهة، سرت بجسدي قشعريرة وبرودة، شعرت بأن الأرض تميل بي ولكني لم أستطع إبعاد عيني عن عيني المرأة، تملكني خوف جعلني أتراجع خطوة وربما خطوات، تحول نظري إلى مرآة بإطار ذهبي نُحتت بإتقان، وخيال فنان خصب جعل الملائكة العارية تُطلق سِهامَها على قلب من ينظر بالمرآة، رأيت انعكاس صورتي بهيئة المرأة التي باللوحة، أرتدي فستاناً بلون أمواج المحيط، مرصعاً

بأحجار كريمة تتلألأ ببريق لم أره مسبقا .. هناك وشم حول عنقي لنجوم تبرق وتخفت، بصدري قلادة من الأحجارالكريمة الحمراء كجحيم مُستعِر يعانق شَعري الغجري الطويل الذي لم يفض بكارتة مقص، ولم تروض تمرده جديلة، تحسسته وأنا أحدق بانعكاس صورتي .. حاولت الاستناد على حائط فلمست أحجارا بارزة بغرفة صغيرة حوائطها من الأحجار القديمة السوداء والرمادية، وبابها من الفولاذ والخشب، بها فتحات كالقِباب لا أرى منها سوى قمرٍ يغيب خلف غيمات رمادية، تحجب نورَه عن الوجود مشاعل يتراقص نورها مع هبَّات نسيم يعبر من نافذة عالية ليحتضن نيران المشعل، ويهيمان برقصة تسحر الألباب وتقيد العقول وتفتح للخيال آلاف الأبواب، أسفل القباب تقبع طاولة تتوسط الغرفة كقطعة من شجرة تصرخ متألمة من انفصال عن الجذور، تتوسطها محبرة وأرواق مطوية وورقة كُتب عليها بخط مهزوز وحبر مبعثر.. "ماركوس"!!

***

الفصل الحادي عشر

عودة

استجمعت قواي لأنطق، فخانني صوتي، وجاء مهزوزا متعسراً ..

- أين أنا؟

(أجابني صوت كعفريت انشقت عنه الأرض فتجسد حارساً بلباسٍ حديدي .. ببشرة بيضاء تميل للحمرة وشعر أصفر أقرب للبياض تحيطه خوذة حديدية)

- ملكتي أنت بـ "اللاتيك".

ارتعدتُ وأخفيتُ وجهي بيديّ ومنحت لعيني مجالاً صغيراً للنظر لهذا الكيان الذي تجسد من الفراغ، نظراته لي وانحناءه أمامي منحني شجاعة السؤال :

- ماذا ؟؟

- "اللاتيك" مولاتي ..أنتِ هنا حتى تتم ولادتك بسلام، فينظر العراف والكاهن لأميرنا الوليد، ثم تعودين لقصر الحكم تملكين كل ما تطأه قدماك المقدسة .

- ولادتي؟!! **(أمسكت تلقائياً ببطني)**

- نعم مولاتي .

- ولادة ؟! أنا نائمة وأحلم، لا ليس حلماً، هو كابوس عظيم!

- مولاتي.

(ينحني ويبتعد بخطوات حذرة بلا رد وبلا إجابة شافية ويغلق عليّ الباب الفولاذي)

تلفتُ حائرة، وحاولت إيقاظ نفسي .. إنني بكابوس وسينتهي عاجلاً، أمسكت بالشمعة الموضوعة على المنضدة وحاولت لسع نفسي لأصحو.

***

تحولت الصورة أمامي إلى المرآة الأنيقة بمحل الأنتيكات، مازالت لوحة المرأة أو لوحتي ثابتة بمكانها، كل شئ بموضعه السابق وكأن شيئاً لم يكن، مازلت أشعر بالدوار فاستندت على كرسي ومسحت جبيني بشرود وحاولت تحليل ما حدث، كيف يكون هناك تشابه لهذه الدرجة ؟ وإن كان التشابه بالملامح فماذا عن النظرات؟ ماذا عن طريقة الجلوس ؟ مؤكد خلف هذه اللوحة قصة .. ترى ما هي القصة؟ وكيف انتقل جسدي من الجاليري إلى مكانٍ غريب، ثم إلى الجاليري مرة أخرى؟ هل الأحلام تزور الوعي أحيانا؟ ألف سؤال يشغلني، عقلي يكاد يشتعل من عدم وضوح الرؤيا، نظرت بتفحص للوحة رغبةً فى التأكد لربما خدعتني

عيناي، ولكنني أشعر وكأنني أنظر بمرآة، إن المرأة التي باللوحة هي أنا وبلا أدنى شك.

اقترب مني أحد العاملين بالجاليري فسألته: لمن هذه اللوحة؟

- هذه اللوحة (أنتيك) أسباني لرسام مجهول، إنها تشبهك أعتقد أنها أنتِ .. غريبة جداً!!

- أتعرف عنها شيئاً آخر؟

- نعم هذه الرسمة مرت بثلاث مراحل، المرحلة الأولى كانت لفتاةٍ غجرية أعجبت الرسام ويقال إنه وقع بعشقها فرسمها، واحتفظ باللوحة ولم يستطع التخلي عنها، المرحلة الثانية كانت عندما تزوجت الفتاة الغجرية من الملك وتوجت ملكة، فأضاف عليها الرسام بعضاً من رتوش حملت شعوره لما بداخلها، المرحلة الثالثة كانت وهي بسجن "اللاتيك"، كانت بفترة المحاكمة، كان الرسام يشعر بأنها تذبل وتحتضر، ويوم الحكم أكمل الرسمة بجناحين يحيطان جسدها، وبعدها قتلها زوجها الملك، فرسمه وجمع باللوحة بين جمال ظاهره وخطيئته التي لم يغفرها له الرسام بإصراره على توثيق الحدث برسمه وبيده خنجر قتل به الملك زوجته الغجرية.

- كانت بـ "اللاتيك "؟

- نعم "اللاتيك"، وهو سجن للأمراء والملكات أو أي من العائلة المالكة يقوم بعملٍ يخالف قانون ومعتَقد المملكة كان يسجن به إلى أن تثبت براءتة أو يموت، فهم لا يستطيعون إعدامة ولا سجنه بسجن العامة والفلاحين لذلك قاموا ببناء سجون خاصة بأصحاب الدماء الزرقاء.

- إذاً "اللاتيك" سجن!

- نعم هو سجن نوعاً ما .

- والعينان اللتان بالسماء؟

- أي عينين تقصدين؟

(أشرت للعينين باللوحة فأنا أراهما بوضوح)

- هذان العينان

- لا توجد أية عيون بالسماء، هذا خداع بصري بسبب هذه النجوم ويحدث كثيراً هذا الخلط، فعقولنا تميل لأن تشكل من الأشكال العشوائية رسومات وأشكال أقرب للمعتاد.

(بحدة) : لا ما تقولة لا ينطبق على ما أرى، فباللوحة عينان ظاهرتان .. عينان عميقتان تحيطان المرأة، أكاد أميز لون حدقتيهما، هما عينان ساحرتان!

(استرددت نفسي من الغرق ببحر النظرات وسألت):

- المهم الآن أريد التفاصيل كاملة لهذه اللوحة، من امتلكها سابقا؟ وكيف استطعتم الحصول عليها؟ وما هو اسم الملك باللوحة؟ أريد كل التفاصيل، كلها.

(اقتربت وصورت اللوحة بتليفوني المحمول)

- بالتأكيد

يبتعد قليلا ويعود وقد أحضر كتيباً يناوله إياي ..

- تفضلي .. بهذا الكتيب كل المعلومات التي استطعنا الحصول عليها.

أمسكت بالكتيب وغادرت الجاليري بمشاعر مضطربة لا استطيع وصفها، كان المطر ينهمر، لم أحاول مسح وجهي من قطرات الماء التي تتساقط عليه وأنا واقفة أمام محل الأنتيكات، بجمود ونظرات شاردة نظرت إلى السماء وأنا أسير باتجاه سيارتي، فاصطدمت برجل فابتسم لي .. وبأداء مسرحي تحدث :

- أهل الأرض يناجون أهل السماء .. رفقا بنا سيدتي

(شعور غريب يجتاحني، كمن يتأرجح من كوكب للجنون .. كمن سقط بمحيطٍ من الثلج وكمن اشتعلت

كل حواسه بلا استثناء .. نظرت بحالة من الصدمة لعينيه، هما العينان اللتان تحتوياننني هناك باللوحة)

- أنت !!

- بالتأكيد أنا، وإن لم أكن، سأجعل من نفسي ما تريدين وإلى الآن أنتِ كنت بقلبي .

- بقلبك؟ أنت مجنون!

- كنت عندي بالجاليري، والجاليري يحتوي على قلبي، فأنتِ بقلبي.

- عندك؟ أتملك الجاليري؟

- أملك الجاليري وأنت تملكينني .

(لم أملك سوى الابتسام، واستمررت بالحوار الممتع مع هذا الكائن الذي يبعث بكلماته الحياة بقلبي)

- من أنت؟

- أنا كل من تمنيتِه مجسدا.

(اقتربت منه حتى غابت ابتسامته وتصرفاته المسرحية، ووقف أمامي في ترقب وأمل وبعينيه تلمع دمعات تجمدت، واستند على حائط بجانب باب الجاليري، شعرت بأن كل خلية بجسدي تحركت بشكل مختلف)..

- أنت؟
- "مالك رحال"
-"رحال" ؟
- نعم .. وأنت؟
- " ريم ".
- زدتِ الاسم روعة بانتمائه لكِ.

(يبتسم، فابتسمت، وغادرت لأنهي لحظةً فاقت قدرتي على الفهم والتصور، وبعد مغادرتي انهارت الدموع الجامدة بحدقتي "مالك"، فلم تقو على الجمود بعد هذا الكم من المشاعر المضاعفة)

***

عدت لشقتي أتحسس جسدي وأنظر لوجهي في المرآة وأنظر للصورة التي التقطتها للوحة، وأُكبِّر الصورة لأرى العينين بالسماء شديدي الوضوح، هما قريبا الشبه بعيني "مالك ،" سحقا، الآن أنا أهذي، الشك بعقلي يأكلني، لا أعرف الحقيقة من الخيال، الأمور اختلطت، أنا بسفينة تصارع عاصفة من الرياح التي تحمل مخدراً عالي الجودة، فينتشي الربان معتقداً أنه يراقص القمر، وتتحطم السفينة متصورة أنه شاطئ النجاة، ثم أعود لأنظر لعينيّ .. لشفتيّ .. كنت كمن يكتشف صورته للمرة الأولى. أخذت حماماً بارداً وقرص منوم؛ لأغيب لعدد من الساعات عن الحياة.

"صوفيا"

نمت بسرعة في طرفة عين، حينها سمعت صوت الحارس يعلن عن قدوم "صوفيا" وصيفة الملكة، هي امرأة عشرينية جميلة، شعرها أسود مجدول، ملابسها تدل على الفخامة والثراء، تنظر لي بحبٍ شديد وتتساقط دموعها ..

- مولاتي "أليجرا"

-" أليجرا" أنا ؟

- مولاتي "أليجرا"، ملكتنا وزوجة ملكنا المعظم "ماركوس".

-أنا ؟!

- نعم مولاتي

(تصمت للحظة وتعاود الحديث وكأنها تذكرت أمراً شديد الأهمية)

- إذاً إنها العودة التي ذكرتيها يوم غيابك

- اشرحي لي، ما الذي تقولينه إنني لا أفهم ماذا تقصدين؟

- قلتِ لي إنك ستعودين بروحٍ بيضاء وأني يجب أن أقص عليك القصة كاملة كما حكيتيها أنت لي بلا زيادة أو نقصان لتكتمل صورة ماضيك، وتنحت على جدران الروح آثار الحياة الأولى .. سأقوم بما أمرتيني مولاتي وسأبدأ من أول القصة ..

-أنا أعتقد بأني أسمع قصة خيالية، عقلي يعلن الاعتراض، لا أستطيع أن أصدق ما أحياه

- دعي عقلك مولاتي هو كثيراً ما يكون عائقا أمام الحقائق.

- ربما .. تكلمي

- أنتِ "أليجرا لومين" ابنة بالتبني لـ"إيفا لومين" العرافة المباركة، تربيتِ معها منذ خمسة وعشرين عاما، كنت الطفلة الأجمل والأذكي بالقرية التي تربيتِ بها، وكان الكل يخافك لأن جسدك به وشم غريب، مع كل اكتمال عام من زمن الحياة الأولى يزداد ظهوره ويبدو أكثر وضوحاً، هو عبارة عن نجوم متناثرة تتحرك باتجاه السماء، تغير موقعها وتتغير رموزها كمن يحمل على جسده أقدار الوجود، عرفنا يوم ولادتك من نجمة تتوسط تاج نجوم وشمك، تتلألأ على جبينك يوم الولادة ثم تغيب وكأنها لم تكن، وبقدر جمال ما تحملينه بقدر

خوفهم منك؛ لأن جموع الشعب تخاف القوة، تخاف المجهول، وأنت الاثنان ولكنهم مولاتي لم يدركوا أنك لستِ بشراً، أنت بمثابة ملاك.

(صمت وانا أكاد أموت شوقاً لمعرفة باقي القصة)

- نعم مولاتي أنتِ فعلا ملاك، وبيومٍ كتبته الأقدار التقيتِ بملكنا المعظم "ماركوس"، عندما استمع ورأى عزفك على طبول النار بمهرجان الخلاص "سالوتيس"، كنتِ تتألقين برداءٍ لامعٍ بلون النجوم، كان يتلألأ على جسدك الخمري الساحر، فسحر ملكنا "ماركوس"، وبالرغم من أنكِ كنتِ تجسدين الغواية التي تخدم الشيطان، إلا أنه لم ير بكِ سوى النور الذي يتلألأ بداخلك .

***

تزوجتما مولاتي بعد تحدي الملك "ماركوس" لسلطة الكهنة وكبيرهم "أنطونيوس"، الذي توعد بلعنات لا قِبل لنا بها إذا تم الزواج، ولكن عشق الملك "ماركوس" لكِ دفعه لسرعة إتمام مراسم الزواج، وأتمت مراسم الزواج ربيبتك المباركة "إيفا"، وحصلت اللعنات مثلما تنبأ "أنطونيوس"، وبعدها ذهبت للقاء"إيفا" بحثاً عن خلاص من لعنات "أنطونيوس"، وبعد رجوعك لم تكونِ أنتِ .

- كيف؟

- لا أعرف تحديداً ما الذي تغير، ولكنك ما عدت أنتِ حتى عيناكِ تغيرتا وصارت بهما لمعة حمراء في الظلام، شئ ما بداخلك اختلف، تحرر، أصبحت أكثر سحراً، واعتزلت الجميع، لم تنطقي بكلمة حتى للملك "ماركوس"، اعتصمت بصومعتك الملكية وكنتِ تنظرين للسماء لفترات طويلة وتتكلمين بلغات غريبة، كنتِ تخاطبين عالماً غيرَ مرئي، تتضرعين وتصرخين وترقصين بحالة فريدة من التعبد، تعزفين الموسيقى إلى أن تنزف يداك، حتى أمطرت السماء كسيلٍ منهمر فخمد الحريق وغاب لون الدماء عن النهر من فيض انهمار المطر .

***

أفقت وأنا بأريكتي .. بدأت في البحث بالإنترنت عن سجون "اللاتيك" وعن بعض الأسماء التي سمعتها من "صوفيا" .. من هي "صوفيا"؟

ووجدت الإجابة بمقال عن وصيفة ملكية من نسل "صوفيا"، وصيفة الملكة "أليجرا" .. مقال اسم كاتبه غير معلوم بعنوان، (ما قصته صوفيا عن الملكة "أليجرا" بين الواقع والخيال)..

وبدأت بالقراءة ..

("أليجرا" الملكة الملعونة المنسية من تاريخ الممالك القديمة .. "أليجرا" المتنقلة بالأزمان، ربيبتها هي "إيفا"، القديسة الغجرية المتعبدة، الخارجة عن معتقد كهنة "الباروتنس"، المانحة لـ " أليجرا"، الابنة قارعة طبول النار، حيوات تخالف قانون الزمن)

وأثناء القراءة استندت على مسند ثم احتضنته لأعاود النوم بلا أقراص.

الفصل الثاني عشر

"إن عدم الإنصات للهمس الخافت بالروح، الذي ينادي "هذه ليست أنا"، جريمة بحق الذات"

رن جرس التليفون فأجبت وأنا شبه مخدرة :

- آلو

- مساء الخير، معك "أيمن" من جاليري رحال

- نعم .

- كنتِ قد طلبتِ معرفة كل المعلومات التي نستطيع الحصول عليها عن لوحة كانت بـ "رحال جاليري"، تفضلي بالحضور وسنعرض عليكِ كل ما وصلنا إليه.

- أوك .

...

دفعت باب الجاليري ورأيت "مالك" ينتظرني، هو يحمل العيون نفسها التي باللوحة، لقد رأيته سابقاً وكذَّبت كل ما شعرت به، نَحَّيته جانباً بتعمد وإصرار .. أهكذا نُضيِّع أثمن ما بالوجود بأن نزيحه جانباً لنركز كل تفكيرنا ومشاعرنا على تفاهات فارغة؟!!

- علمت أنك سألتِ عن اللوحة فأحببت أن أجيبك عن كل أسئلتك لتستطيعي الوصول للحقيقة الكاملة.

- أتمنى.

- أنتِ لا تتمنين، أنتِ تأمرين .

- شكرا يا "مالك".

- أنا من يجب عليه شكرك، لنشرب شيئاً ثم أحكي لك قصة اللوحة .

أحضر "مالك" مشروباً شديدَ الحُمرة، حاد المذاق، بارد، ارتشفتُ القليلَ منه فشعرت به يتخلل خلاياي وبأنني مسترخية هادئة، فهمس :

- "لوميني" .. كنتِ تصنعينه بنفسك بحياتك الأولى .. بزمنٍ آخر، أسميتيه "لوميني" ليحمل النور لروحِك، فاسمه مشتق من اسم ربيبتك "إيفا لومين".

- بزمن آخر!!

(ابتسمت، وكنت مستمتعة بالحالة التي أحياها، مشتتة بين واقعٍ وخيال، منتشية بكلمات "مالك"، هو من جذبني لعالمٍ كنت أشعر بوجوده ولا أدركه، ثم نظر لي غارقاً بتفاصيلي، وصمت حتى أعاود تقبيل الكأس، فهمس بصوت أقرب لمعزوفة موسيقيه) :

- مولاتي، ملكتي، ستعود ذاكرة الماضي، كل ما مر بحياتك سيصبح أكثر وضوحاً .

- أنا بالفعل أرغب بالفهم، أرغب أن أرى الأمور أكثر وضوحاً وإن كنت لا أنكر أن لحالة الهذيان بريقاً يجذبني .

- ما مر بحياتِك حلم يكتمل بما تسطره يدك .. حلقي معي "أليجرا" لعالمِ الحقيقة ولا تتقيدي بحدود ولا تفكري بقيود.

- ما مر بحياتي ؟! "أليجرا" ؟!

الآن أحلم أو بغيبوبة ما، ربما تعرضت لحادث جعلنى أغيب بالخيال .. دعني أسألك، أنا أعرف كل تفاصيل ومنحنيات وتقاطعات حياتي الحالية، فهل ستقصص عليّ حياتي الأولى؟ وهل هي حياة أو حيوات؟

- حيوات تنبع من الحياة الأم، الحياة التي غرست بها روحك في الوجود، الحياة التي تؤثر بطريقة لا شعورية على كل الحيوات التي تليها فإن كانت حياة سعيدة، عشتِ سعيدة مُحلقة في سلام، وإن كانت حياة ثورية كنت ثائرة، وهكذا حبيبتي ...

- الأولى هي الأم، إذاً أنت تؤمن بالتناسخ وبأننا أرواح تنتقل بين الأزمان .

- نعم أؤمن بأننا نعيش بأكثر من جسد .. أننا أرواح تنتقل لأجساد مختلفة وبحيوات مختلفة وسأثبت لكِ غاليتي.

قام "مالك" وجذبني بهدوء .. وقفت أمامة ثم أدارني وقبّل شعري، ولمس ظهري برقة وخلع عني الجاكيت، ثم رفع قميصاً من القطن لأعلى ليظهر له ظهري مرصعاً بنجوم وجهتها للسماء، وكأنها تصعد لأعلى و تتلألأ كشموس متناثرة، قبلني وبكي بصمت، كانت دموعه تخون ثباته وتنهمر باشتياقٍ ولهفة، رهبةً ورغبة في أن ترسو على شاطئ سلام بعد رحيل أزمان بقلب عواصف لا تهدأ.

- "أليجرا" .. كثيراً ما يكون غير المفهوم أقرب لهويتنا الحقيقية، كتيراً ما نشعر أننا ندور في حلقات مفرغة من المعنى والهدف، في حين أننا لو خرجنا عن مسارات الحلقات المحددة، سنجد أرواحنا.

- إن عقلي بدوامة من النشوة، شعوري لا يوصف، وعقلي الأحمق يطالبني بالتريث وأنا أنجرف بكل ما بداخلي للعودة لشعور يقودني لمجهول يأسرني بإحساسه القوي!

- كثيراً ما يكون العقل حاجزاً أمام الخلاص "أليجرا"، نعم أنتِ "أليجرا" بجسد أنثى جميلة القلب والروح، أنثى ساحرة، تحيا في عصر لا تنتمي له، أنثى تخلق موسيقى الحنين، موسيقاكِ كما الحلم .. أنتِ طيلة حياتك كنتِ تستدعين اللقاء بالموسيقى، كنت تعزفين لي وكنتُ أراكِ، كنت أشعر بألمِك في كل لحظاتِ حياتك، شعرت بألمِك يغتال روحك بوفاة والدك، وكنت بجانبك دوما، كنت فقط أرغب في التأكد من قدرتك على تحمل الإدراك والوعي القادم، إلى أن رأيتِني، رأيتِ عينيّ اللتين تبحثان عنك منذ قرون، أريدك منذ الأزل وإلى الأبد معشوقتي "أليجرا"!

- وكيف تأكدت بأنني "أليجرا" ؟

- الإحساس الذي احتواني عند ولادتك، موسيقاكِ التي جسدت بها ألمك، وانطلاقك، ورغباتك، كانت رسائل واضحة أنك تملكين عقلاً يستطيع استقبال رسائل الزمن، حتى أنك نظرت بعمق روحي وبادلتكِ النظرات واقتربتِ من عيني باللوحة ورأيتِهما ولن يستطيع رؤيتهما سوى أنت مولاتي!

اقترب "مالك" مني وتعانقت عينانا، واقتربت أنفاسي من هذا العاشق التائه بين عالمين؛ بحثاً عن عشقٍ يمنحه الحياة، وبصوت بح من نشوة التيه والعشق:

- ما أحياه بقانونِ المنطق مرفوض، لكن بإحساسي أصدقه، أشعر كأني مِت، وأني أسير في النفق المظلم وأقترب من النور بنهايته، أنقاد لآخر الطريق وأنا بلا أية قدرة على التوقف بلا أي اختيار، اقتربت منه مرة أخرى لأقبله قبلةً جمعت بها كل الاشتياق الذي قد شعرت به طيلة سنوات الفراق التي لا أعرف لها عددا، فتحت عيني لأجدَ أمامي "أنجيلوس" بعينيه المسافرتين بينه وبين "مالك رحال"، لقد عرفته تماما، نعم للحواس ذاكرةٌ أكثر قوة من ذاكرة العقل، هو "أنجيلوس" الذي قدمت له روحي عند بركة الماء، هو من نحت على جدران ذاكرتي اسمه، هو من خلق بعيني حزناً واغترابا عند الفراق، وهو من شاركني بسجني المؤلم بـ "اللاتيك" .. تكاد الأحداث تتجسد أمامي.

***

مازال عقلي يرفض الخضوع لغير المألوف من الأحداث التي أحياها، تلفت بشرودٍ حتى إنني فقدت

الإحساس بالزمن، فغاب قرص الشمس وأنا لا أدري، ثم فُتح باب زنزانتي بـ"اللاتيك" ليقف أمامي "ماركوس"

- حبيبتي.

- حبيبتك أنا صدقاً ؟!

- معشوقتي، أنتِ تعلمين أنكِ تحتلين قلبي وعقلي .

- العشق هدمٌ للخوف، خلاصٌ من القيود، لا يكون العشقُ عشقاً وهو يرتجف، العشق قاطع للشك، هادم لأفكار الصمت، لا يقبل نقاشاً، لا يقبل أن يوضع بالمحاكمة، لا يقبل (ربما).

- صدقت معشوقتي، إنما هذا التداخل المرير بين قيود المملكة والكهنة، بين سلطة العشق وسلطة الموروث والمدسوس تجعلنا نعاني، ولكن ثقي معشوقتي أنني لن أسمح لسوءٍ بالمساس بك، لن أسمح مطلقاً.

اقتربت من "ماركوس" ونظرت داخل روحه، ودمع ينسال على وجنتي كنيرانٍ تنهش جسدي :

- لقد سمحت بالفعل "ماركوس"

- لا حبيبتي، وجودك هنا وجود مؤقت، ستخرجين فور أن تتكلمي، أن تنفي تهمة الخيانة عنكِ، قولى كلمة

تردين بها روحي لجسدي، قولي إنك لستِ خائنة، قولي إنك اعتصمت برباط الزواج.

- سأقول ما أشاء وقتما أشاء وكيفما أشاء، لن أقول كلمات ألقيتها على لساني، سأقول الصدق وإلا لن أتكلم.

- إذاً أنتِ خنتيني وإلا كنتِ ستدافعين عن نفسك أليس كذلك؟! أنتِ قتلتيني، أنت دمرتِ كل ما بنيته من آمال بالسعادة .. أنت قاتلتي "أليجرا"!

(نظر لي بألمٍ وخرج غاضبا).

الآن أكاد أصرخ وأناديه، "أنت اتهمتني بالخيانة" .. وأعود لنفسي، "نعم أنا خائنة، لا أنا تائهة" ..

تنساب موسيقى وأبدأ رقصة ألقي بها عن كاهلي عناء هذا الألم الذي يقتات على روحي، موسيقى تصل لأسماع الحرس، فيظهر انعكاس نور بداخل غرفتي يراه الحرس المتمركز أمام باب زنزانتي بوضوح، حتى ما انتهت الموسيقى ألقيت بنفسي على سريري ورحت بغيبوبة طويلة.

***

تلاقٍ

سريرٌ من الأخشاب العتيقة، فُرشت عليه ملاءات أنيقة، أفقت عليه وأنا أشعر بإرهاقٍ شديد، يحتضنني شعري الغجري، أسمع طرقاً على الباب فانتفضت كنمرة فك أسرها ..

- من؟

- الطعام مولاتي

فتح الباب وقدم لي صينية وضع عليها الطعام ومشروب "لوميني"، شربت قليلاً من "اللوميني" ثم حاولت الاسترخاء والنوم على سريري بـ "اللاتيك"، وبحالة من انتصاف الوعي لمحت خيالاً وأنا نائمة على ظهري، فعدلت من وضعية رأسي ورأيته مجدداً كان الموقف مكررا .. إنه "أنجيلوس"!!

رأيتُه وهو يجلس بجوار قدمي بعينيه الساحرتين وجسده البرونزي وشعره الأسود المجعد قليلا ..

- لا تخافي أتذكرينني "أليجرا" ؟

فتحت قبضة يدي فلمس كفي وتعانقت أيدينا..

- أنت "أنجيلوس"، أنت بعقلي صور مشوشة ولكني أذكرك بروحي، أذكر عشقي لك.

- نعم .. فما بيننا فقد فاق قوة نسيان الزمن.

- ساعدني على الفهم، لماذا أعاني هكذا لمجرد فكرة مُسيطرة على البشر، أخاف على ابني الذي لم يولد بعد، وأنا لم أعتَد الخوف، أشعر بالضياع كأن ذاتي قد هُشمت لآلاف القطع ونُثرت عبر أزمانٍ وأمكنةٍ لا حصر لها، الخوف ينهش قلبي وأنا أصارعه حتى لم تتبق بي قوة لأحيا!

- الخوف بوابة الخضوع للآخر، وأنا أقول لكِ إنه لا شئ مخيف، حتى أنا بكل ما ألحقوه بي من بشاعة .

- أنت ملاك "أنجيلوس".

-أنا ملاك عاصٍ، والعصيان والتمرد أول طعنة للعامة، أول نبش لجروحهم وقروحهم التي يحاولون إخفاءها، فهم يحاولون إخفاء عورة ضعفهم وأوجاعهم وقهرهم بادعاء القبول بما هم فيه من ألم، ونحن المشاكسون حاملون مشاعلَ تريهم سوءاتهم، تفضح وجعهم، وبدلاً من أن يمقتوا ماهم فيه يمقتون وجودنا، بدلا من أن يقدروا منحة المعرفة والإدراك باتوا يبحثون عن كمٍ من الأكاذيب والأوهام التي يهيلونها على مواطن ألمهم

متوهمين أن الإخفاء طريقة مُثلى للوصول للسلام، وهذا عزيزتي وَهم، وهمٌ فاق إدراك كل مواطني هذا الكوكب اللعين، ولكن لنا في التجاوز حياة، وهو الموهبة الحق، تجاوز العقبات المتمثلة في الجنون الأرضي والعبث القدري .

- إذاً لقد تجاوزت كلَّ العقبات بمهارةٍ فائقة، تجاوزت اللعنات والوصمات الأرضية.

- مولاتي، أرى أن التجاوز لمن يشعر بالعقبة، وأنا لا أرى اللعنات والوصمات، إذ لا أشعر لها بتأثير.

ثم قلتُ وأنا لا أستطيع كبحَ جماح لساني الفاضح لما بعقلي : أكنت دوماً بهذه الوسامة "أنجيلوس" ؟!

رد عليّ بابتسامة وغرور مصطنع: أنا أملك وجوهاً عدة **(بأداء ساخر)**، أنا أستطيع أن أكون أحمر اللون، طويلا جدا بأنيابٍ تنسال منها الدماء.

- ولمَ لست كذلك الآن؟

- لأني أقف بحضرتِك، لأن عينيكِ هما من تريانني، أنا وجهٌ لرؤية البشر، وأنت رأيتيني جميلاً فأصبحت كما تريدين ملكتي، والأهم الآن أنني جئت لأرد لكِ حريتك.

- ستخرجني من هنا ؟

- لا

- أنت تتلاعب؟

- حاشاك مولاتي .. لا أجرؤ.

- كيف ستحررني إذن ؟!

- سأفتح أبوابَ عقلك لترى أن الحياة تكمن هنا **(مشيرا لرأسي)**

- إن كنت تملك القوة أخرجني

- لماذا تطلبين ما تستطيعين تحقيقه ملكتي؟

- كيف أحقق ذلك ؟!

دار "أنجيلوس" بحركة راقصة، ثم ركع أمامي

- ملكتى، لو كنتُ ملكاً كنت محوت العالم لأجلك، أما أنا **(بضعف مبالغ فيه)**، فأنا مسكينٌ ضعيف، أنا كائن خرافي خلقوه بعقولهم وجسدوه بإرادتهم، أنا المُلام دوماً، أنا صندوق قذارتهم وموقع إثمهم، إن قتلوا، سرقوا، فعلوا كل سوء، كنت أنا المُلام !

- أوَلست كذلك؟ أنت تُغيِّب العقل وتقود التفكير كما حدث معي.

- أنا ؟ لا مطلقا، قتلتيني باتهامك لي، وأنت من تتألمين من الاتهامات الباطلة مولاتي ؟!

- أولست من سحرني عند بركة الماء؟

(كنت أستفز كلماته لتأتيني ردوده الساحرة الساخرة الغارقة بالعشق) : اصمت وأحِب

-أ صمت أو أجيب ملكتي؟!

- اصمت لتجيب .

- سمعاً وطاعة وخضوعاً يليق بك، سأجيبك حالاً .. أنا لم أسحرك أنت من فعل ذلك، روعة روحك وجمالك الداخلي والخارجي أطاح بعقلي فجعلني أتجسد بهيئة بشر، ولكِ أن تتخيلي مقدار مخاطرتي بالظهور كبشر، ومقدار ألمي بالظهور كبشر!

- ألمك بالظهور كبشر؟ هل نحن بهذا السوء؟

- مولاتي، هم، هم فقط من تنكروا لطبيعتهم الأولى، هم من غرتهم الحياة وحاولوا الوصول لأكبر الغايات على أنقاض جثث الآخرين، هم من سقطوا بمستنقع الصراع ولولا أنتِ ما تخليت عن طبيعتي الملائكية ولو مؤقتاً.

- لمَ تكرر (هم) وكأنك تقصد استبعادي من كوني بشرا؟

- إن من يختلط أصل وجوده بغير البشر، ليس ببشر، هو خليط بين عالمين، مزيج بين وجودين أحدهما لا يعلم بوجود الآخر.

- أنا لست بشرية ؟ أهذا ما تقصد ؟

- أنت بشرية ملائكية، طبيعتك الملائكية غالبة عليكِ أما هم فطبيعتهم الأرضية غالبة عليهم .

- أنت دوماً تمنحني أفكارا غير محددة، أنت تصنع ألغازاً "أنجيلوس"، وماذا لو غلبت عليهم طبيعتهم الأرضية ؟

- طبيعي، فهي وطنهم الأم وعندما تغلب عليهم طبيعتهم بلا سعي منهم للسيطرة عليها ستؤول الأمور لحالة من التردي والسقوط، وسنستمع قريباً لهدير ارتطام يدمر السكون والترقب، والآن لا مزيد من الترقب، قرري مولاتي، قرري الخروج من سجن الزمن.

- إن كان مجرد قرار مني يكفي فقد قررت..

(وقفت على السرير وقلت بصوتٍ عال)

- أود الخروج من سجن الزمن!

وضحكت من قلبي حتى شعرت بضحكاتي تتلاشى، وبصداها أصبح يأتيني من بُعدٍ سحيق فارتجف قلبي، وحملقت بالفراغ، ثم كان السكون!!

***

موسيقى اللقاء

أفقت ومازال صدى ضحكاتي يتردد بأذنيّ، كنت أشعر بالتشوش، والتيه يحيط بي من كل جانب، كنت أتمنى أن أجدَ إجاباتٍ واضحة تريح عقلي الذي يزداد تيهاً يوما بعد يوم .

- نظرت لوجهي بالمرآة فرأيت نفسي بشكل مختلف عما اعتدته، ماكياج مختلف، رموش طويلة كأسوار سجن لمن يتعمق بعيني، شعر أحمر نبيذي لم أر مثله قبلا! وضعت يدي على وجهي فرأيت أظافر حادة طويلة ملونة باللون الأزرق، أطرافها حمراء، أستمع لموسيقى الطبول تأتيني من كل حَدب وصوب، تدور وتدور الأرض بي، يعلن المنبه عن وجوب الاستعداد لحفلي الموسيقي .

وصلت لقاعة العرض .. اليوم هو موعد عزف "موسيقى اللقاء "، حفل ضخم وحضور يسارع للحاق بتذكرة لحفلي الموسيقى، وأول عزف حي لمقطوعتي "موسيقى العودة واللقاء".

كان ظهوري مختلفاً، فلم أكن أعرف تحديداً مَن أكون، فتحت الستارة وكنت أتوسط المسرح، اقتربت من ميكروفون بمقدمة المسرح وخطبت بالجمهور:

- موسيقى العودة واللقاء .. أتمنى أن تحوز إعجابكم، ليلتكم سعيدة .

عزفت بكل كياني .. تحركت على المسرح كمن يتعبد بمحراب آلهة ليطلب منها الغفران .. عزفت كطائر مشتعل يفارق حياة البشر ويعود لروعة حياة السماء، لا يقطع اندماجي سوى المشاكسات بيني وبين "أنجيلوس"، الذي يجلس بمنتصف الصف الأمامي، فعندما أحتضن الكمان للعزف ينظر لي ويشير بأمنيته، أن يكون كماناً بأحضاني، كنت ألمح عينيه بين كل الحضور، كان يتلاعب بي ويسحرني، وبلحظة واحدة أراه قد تجرد من ردائه الحديث (البدلة وما تبعها) ويرتدي بنطالا من الكتان وقميصا فتح على مصراعيه ليظهر مفاتنه .. نعم أعنيها، فهذا الـ "أنجيلوس" فتنة متحركة على قدمين،

أنظر له غاضبة فيعود لردائه القديم، يصعد على المسرح ليركع أمامي ويطلق من يديه ألف حمامة بيضاء تمسك بمناقيرها نجوما ملونة وتلقيها من أعلى، ثم تتحول لورود بجانبي المسرح، أشعر بعينه تحيطني، وأشعر بيديه تحتوياني فأرقص بقلبي قبل جسدي وأنا أعزف على أوتار روحي قبل أوتار الكمان .

ختام هائل تقشعر له الأبدان .. رفعت رأسي للسماء وأرسلت قبلة لروحه التي تحيطني وتبتسم .

توجهت لبهو الأوبرا بعد انتهاء الحفل فرأيت مرآةً عملاقة، وقفت أتأمل بمظهري الجديد أو القديم، لم أندهش من شعري الأحمر ولا أظافري الحادة ولا فستاني الأزرق الحريري الذي يتحرك مع كل هبة نسيم أو حركة من جسدي.

لم أختر مظهري الجديد، أصبحت هكذا بدون أي مجهود يذكر وكأنني فتحت باباً أطاح بكل المُسلمات بهدوء، فكل ما حولى أصبح مختلفاً تماما عما كان .. وبدأت أعتاد على شكلي القديم

***

يقف "مالك" بآخر الردهة بملابسه الأنيقة وباقة من الورد الأحمر بيديه، يقذف بها وردة وردة على الرخام

الأخضر الذي يميز الممر، فتتحول الوردة لورود وبراعم ملونة أسير عليها، فيتقدم مني لخلع حذائي هامساً:

- كي لا تؤذيها

أخلع حذائي وأسير بخفة على الورود، فتصدر أصواتاً كمعزوفة موسيقية تفوق معزوفات "ريو" روعة، فأتوقف لأنصت لموسيقى الأرض، فيقترب "أنجيلوس" مرة أخرى ليحملني لنرتفع سوياً عن الأرض بمقدار يقارب ارتفاع الورود، فتلمس قدماه الورود ويحيطني عطرها، هذا المجنون الذي يعبث بأنحاء كينونتي فيتملك قلبي ويغوص بعقلي ويحيا بروحي، يفتح باب السيارة لأجلس ويقود هو لبارٍ ومطعم بالزمالك، بقعتي المميزة من الوجود .. أنزل من السيارة لتتلقفني يدا "مالك" وندخل البار فيطلب لي شراب "لوميني"، أرتشفة كقبلة باردة صاعقة تتسرب بجسدي لتمنحني حرية مضاعفة واستسلاماً لحقيقتي كابنة من أبناء الغجر، تحيا لتبحث عن سلام.

***

جلسنا سوياً والحوار بيننا لم ينقطع مطلقاً، الحوار ليس دوماً حوار كلمات، هو حوار نظرات وهمسات

وضحكات، ولمسات تسري بقلبي فتزيد تدفق الدماء لوجنتي، ويزيد العمر لحظات من السعادة، ثم يقترب "أنجيلوس مالك" من عازف الساكس ويهمس ببضع كلمات ويمسك الساكس ويبدأ في العزف على المسرح الصغير الذي يتوسط البار، وانسابت موسيقاه غارقة بعالمه.

واستمعت لمقطوعتي الموسيقية "موسيقى العودة واللقاء" بتوزيع مختلف وعزف منفرد لم أكن أتوقع روعته، تذكرت - وإن كنت لم أنس – والدي، كلماته ونظراته ولمساته وهو يربت على شعري، احتضانه لي وهو يعلمني عزف الكمان.

وفجأة شعرت بأن هناك من يراقبني، نعم .. فعندما يحدق فيك أحد ما حتى وإن كنت لا تراة تشعر به، وهذا ليس له تفسير محدد سوى أننا ما زلنا نحبو في الإدراك الحقيقي لقدراتنا.

التفت باتجاة من أرسل لي هذا الشعور، فرأيت شابا يجلس وحيدا يرتدي (كاسكيت)، وشعره البني يظهر من تحت قبعته، ينظر لي ويرفع الكأس بالتحية تصحبها ابتسامة .. لم أتحقق من ملامحه ولم أهتم به، تجاهلته تماما و استمررت في متابعة "أنجيلوس مالك"، وإن

كنت أشعر بأن نظرات هذا الفضولي مازالت تخترق جسدي، انتهت مقطوعتي بعزف "أنجيلوس" واقترب مني، ولاحظت عينيه تحدقان بهذا الشاب الغريب، احتضنني وتغلغلت أصابعه بشعري وغادرنا!

تردد بأذني صوت "إيفا": "كوني بسلام يا ابنة النور والنار" .

كيف استطعت نسيان الكلمات، وأين اختفت "إيفا"؟

إلى أين ذهبت وقتها؟ لا أذكر .. أكانت نبوءة؟! لا كانت إرشاداً .. كانت تمنحني إشارةً لما هو قادم .. ويلي!! ألهذه الدرجة لا نعي الكلمات إلا عند حدوثها؟! لماذا لا نتوقف أمام التفاصيل، أمام الإشارات.

أعتقد أن قراءة التفاصيل طريقة جيدة للتنبوء بالمستقبل، أرغب الآن برؤيتها، أشتاقها، ربيبتي بزمنٍ آخر ومرشدتي بزمنى الآني.

هل أذكر كلماتها؟ نعم .. نعم، تتردد كلماتها بعقلي

الأولى: عشق يجمع بين روحين بقلادة من النار.

الثانية : تاج من الياسمين يصبح قيداً وأسوار .

الثالثة : رحيل بلا اختيار .

عشق يجمع بين روحين، أنا و"أنجيلوس"، نعم نحن مكتملان .. نحن اكتمال لنصفين هو انعكاسُ روحي، وبريق شغفي، وروعة احتضان قلبي بأضلعٍ من سلام.

هو، ولم أعد أجد وصفاً يليق بما في داخلي لنبع الحياة الذي تدفق بقلبي بوجوده الذي أثق أنه كان وجوداً قبل الوجود، وأن انفصالنا ككائنين مختلفين ما كان إلا كما انفصال الروح عن الجسد، انفصال يعني الموت المحتوم على الاثنين، وهكذا كنا .. ولتأويل كلمات "إيفا" ألف احتمال يدور بعقلي وأنا أتنشق الحيرة كالهواء، وتاج الياسمين الذي أصبح قيداً وأسوار ...تاجي قبل أن أقترن بـ "ماركوس" .. ربما!! ورحيل بلا اختيار، نعم! ولكن كيف رحلت؟ كيف انتقلت من زمن حياتي الأولى؟ هل أعدموني؟ وأين جنيني؟ وهل أنجبت بالفعل أم ... ؟

ويلي! أصبحت أكثر تيهاً .. أنا أحيا صراعاً يغتال ثبات عقلي وثقتي بمسلماتي!!

"إيفا" المباركة، قلتِ لي انزعي عنك سجن المكان والزمان، وأنا أطالبك الآن بأن تردي عليّ ذاكرتي كاملة، فأنا أحتاج لمعرفة ما حدث لي بحياتي الأولى.

رغبت بأن أغادر لهناك، حيث غرس روحي، ولكني ما تخيلت مدى ألمي هناك إلا عندما انصاع القدر وعدت هذه المرة القاسية .

***

الفصل الثالث عشر

المحاكمة

بدأت أخطو ببهوٍ عملاق، أقدامي ثقيلة، أنا مقيدة .. اقترب مني كاهنان ليجبراني على أن أجثو على ركبتيّ أمام شعلة نار شعرت بحرارتها تلهب جبيني، وقطرات العرق تنساب على وجنتي، رفعت عيني لأرى أمامي كاهناً بملابس زاهية، وتميمة يحركها بيديه تتأرجح مع كل حركة يتحركها وهو يشير لي ويحدثني:

- يجب عليك الاستغفار عن ذنوبك التي ارتكبتيها بحق الإله والملك والمملكة.

كان صوتُه حاداً .. نظراته باردة، شعرت بخوف، كنت كمن أُقحِم بأحداث فيلم فتجسد بجسد البطل وشعر بكل ما فيه من مشاعر وآلام، وإن كان ما زال يعلم تمام العلم أن له حياة أخرى خارج الفيلم، حياة ينتقل بينها وبين الفيلم لا إراديا .. وأصغيت لكلمات الكاهن:

- لم تدعي لنا فرصة لإنقاذ روحك .. أنت الأرض التي غرس بها الشيطان نبتته الملعونة، اعترفي"أليجرا"، اعترفي بأنك قد أسلمت جسدك وروحك للشيطان، اعترفي بأنك مدنسة .

فجأة بدأت أصوات الطبول تتعالى، بدأت انعكاسات النار تتلألأ على حوائط البهو الواسع، ووجدت جسدي يتحرك لا إرادياً، رفعت رأسي لأعلى ومددت يديّ،

فكان بكل منهما قمر منير يخطف العيون ويعمي الأبصار، كنت أنا لست أنا، كمن تلبَّسني الجان وسيطر على كل خلاياي

- أنا "أليجرا" .. أنا إلهة العشق ولعنة العصيان، أنا ألف طلسم من الأسحار وبريق الأقمار، من يرنو لها يضاعف لحظات وجوده بالوجود .. أنا لا أحاكَم أنا أحاكِم .. أحاكِمكم أيها التابعون، سأجلد قلوبَكم ألف عام جراء ما تفعلونه بي، سأبكيكم دماً على ذنوبكم وجحودكم .. أنتم لا تعرفون عني سوى ما تتصورونه، خوفكم قيد فكركم!!

(التفت لـ "أنطونيوس") : أحسنت "أنطونيوس"، خلقت قطيعاً من العميان فقتلوا المُبصر الوحيد، شوهت كل أوراق التاريخ، اقتلعت كل بذور الحكمة لتخلق وجوداً عقيماً لا ينبت ولا يغني من جوع .. أنت يا كاهن البلاط المقدس، أنت يا من تدعي أنك ابن الإله، أنت لعناتُ الجحيم، أنت إثم لا يُغتفر ووجه لجنون التكبر، من أين أتيت بالدلائل التي تحاكمني من أجلها؟

- منك "أليجرا" .. منك أيتها الساحرة المُشعوذة التي تتفنن في الفتك بالعقول قبل القلوب، أنت قارعة طبول النار، أنت التي مع كل طرقة ولمسة على الطبول

تخاطبين الجان والشيطان فتصنعين علاقة دميمة مع الملعون .. هو الذي حمل اللعنات للمملكة وأنت عبَّدت له الطريق، أنت تجرفين العامة للخطيئة قاصدة، أنت تتفننين في الإغراء، أنت تفسدين الأرواح، ومن يوم توجت ملكة واللعنات لا تفارقنا، إنك لعنة على المملكة، اعترفي "أليجرا" ربما نطلب لك الغفران يوما!

- ومن قال لك إني أحتاج إلى وسيط بيني وبين الرب؟! الرب لا يقبل وسيطاً، الرب يراني الآن، يعلم بما أعاني، الرب هو من خلقني، هو من وهبني ما تسمونه لعنة، الرب هو من جعلني أعشق النار وأهيم بها، وأنتم تستطيعون صياغة ما وهبني الله كما تبتغون، الهبة تصبح لعنة، واللعنة تصفونها بالهبة، كله حسب ما يخدم أطماعكم ومصالحكم!

تخافون تفردي، لست مثلكم، وهذا لا يعني أنني ملوثة ولا يعني أنني ملعونة، إن تفكيركم هو الملعون، ويلي من وجود صنوفكم بالحياة!!

(يبتلع "أنطونيوس" ريقه الذي جف، ويحاول أن يتصنع الثبات أمام كبريائي، وقوتي الكافية تماما لإزهاق آلاف الأرواح من أمثاله)

تراقصت نيران الشعلات التي تنير القاعة وأخذت في الارتفاع، حتى طالت سقف قاعة المحاكمة .. نظر الجميع وكأن على رؤوسهم الطير واستمررت في قول ما أشعر به، قررت أن أخلع عنهم ثوب الخداع الزائف حتى لو كانت هذه هي آخر كلماتي على سطح الوجود.

- أنا لن أبرئ نفسي أمامكم، لن أسمح لكم بقتل كرامتي، لن أسمح لكم بتقييم كينونتي، لن أمنحكم شرف إدانتي أو تبرئتي .. أنتم لا تملكون السلطة، من منحكم لقب القضاة ؟ من جعلكم أبناء الإله؟ أنا لم أوقع على تفويض لتحاكموننني، لتقيمونني، لتقومونني .. لن أسمح لكم ببناء مجدكم على أنقاض جثتي، لن أمنحكم شرف عفنٍ تتقلدونه بوصفكم الرعاة، شرف تتوهمونه لأنكم أدنى كثيراً من رحمة الإلة .. وهذا هو القول الفصل حسب إدراكي.

(ثم وجهت كلماتي لأنطونيوس): والآن لتبدأ المسرحية الهزلية التي تبتغيها! واعلم أن السقوط ينتظر المملكة، إن كنت أنت من تحمينها .. لحظات ستتفننون فيها بتعذيبي، وألف لحظة ستبيد سلامكم أنتم صانعوها .. أعلم أن ما تسمعه من كلماتي لن يدركها أمثالك من

معتنقي الاستغلال والاستبدال وإغفال المعاني، لن يدركها قاصرو اللذة على ثوانٍ تسد فجوات حياتهم!

(**"أنطونيوس" صارخاً**: خذوها من هنا لقد فقدت عقلها.

(**يتدخل "ماركوس" بحدة**): "أنطونيوس" راقب كلماتك أنت تتحدث عن مولاتك.

التفت لأرى عينيّ "ماركوس" تهربان من عينيّ، تساقطت دموعي وتملكني ألم يفوق الوصف لتخلي "ماركوس" عني، عن الفكرة التي كان يعتنقها .. غادر "ماركوس" بخطوات كوقع دقات الساعة الباردة لمن ينتظر حكم الإعدام، ثم أعلن الكاهن "أنطونيوس" عن إيقاف مؤقت للمحاكمة.

أفقت وكل ما بجسدى وعقلي مُنهك، فُتح باب غرفة نومي ودخل "أنجيلوس مالك" ..

- مساؤك كما تشتهي نفسك.

(ابتسمت وأنا أشعر بخفقان قلبي الذي يصارع الزمن)

- حبيبتي يجب أن تعرفي أن ألمَكِ مؤقت.

- مؤقت؟ كم أرغب بذلك، الدمج بين الحياتين يؤذيني، أشعر أن الألم يتضاعف.

- لأنه قارب على الانتهاء

- كيف سينتهي وأنا أحاكم الآن؟

- لن نتكلم في ذلك الآن، لنجعل هذا اليوم خارج إطار ما نحياه، خارج إطار الزمن .

وافقت بإيماءة، وفتح "أنجيلوس مالك" خزانتي وأخرج فستاناً أسود اللون، رقيقا، طويلا.

من أين أحضر هذا الفستان؟ هو ليس لي ولكنه أحضره من خزانتي، ويلي، أهذا فقط ما توقفت عنده وأنا أحيا كمًّا غير مسبوق من الأحداث غير المنطقية؟!!

لا .. هي منطقية، هي بداخلى أصبح لها منطق وتفسير، ولكن الفستان ليس له منطق ولا تفسير! لكنه فستانٌ أنيق، ارتديته فكان شديد الروعة على جسدي، يزينه عقدي الناري .. واكتفيت من خلافي مع نفسي وأسئلتي الشاذة.

خرجت لأرى "أنجيلوس مالك" بقميصٍ أبيض من قماش الكتان الخفيف يظهر جمال جسده، وببنطال أسود شديد الأناقة، وشعره المتموج قد جمعه بشريط رقيق وعطرة قد تغلغل بداخل الأثاث حتى شعرت بأن (كنب الأنتريه) قد يُقبله رغبةً به واشتهاءً لروعته .. وقف أمامي ورفع يده لأضع عليها يدى وغادرنا.

قاد سيارته السوداء التي يمتزج بداخلها عطر الندى وموج المحيط، وصلنا إلى مكان لم أره مسبقا، هو كالغابة التي تتعانق فيها الزهور بعيون من الماء العذب، الذي تتلألأ بأعماقه أحجار طبيعية ملونة، تطفو فوقها سحب قريبة من سطحها كالماس وكأن مجرات الكون قبعت بداخلها في سكينة وسلام .

التفت لـ "أنجيلوس مالك" فكان بهيئته الساحرة، والتفت يده حول خصري وجذبني لصدره ويده الأخرى تمسك برأسي، وقبلني بتلامس ناعم بين شفتينا، وزاد الالتصاق حتى صار ارتشافاً لآخر قطرات الحياة التي تنبض بداخلي، بادلته القبلة بأكثر منها؛ فأنا كريمة لا أقبل بعدم الرد للمِنح الشديدة اللذة والروعة، فجعلت من شفتيه موطنا لشفتيّ، ومن فمه موطنا لكلماتي، ومن جسده موطنا لأماني ومتعتي .

***

عدت لشقتي لا أدري كيف، ولكن حين عودتي غبت لحظة بسريري وأنا أشعر بالاكتفاء والسكينة التي ما عهدتها بحياتي قط، ولكن القدر أبى أن يكون نومي برداً وسلاماً لروحي، فأعادني لغرفتتي بـ "اللاتيك"، حينها اختلط شعوري بين الثقة في أنها رحلة عصيبة ستنتهي

يوماً ما، وأملي بصباح أو مساء أسكن فيه بعيني "أنجيلوس مالك"، وبين غضب وحزن عميقين وضيق صدر يجعل أنفاسي جحيم مستعر.

(تقف "صوفيا" وهي تنتظر مني إشارة أو أمراً، تحاول فعل أي شئ لتخفيف معاناتي)

- "صوفيا"

- مولاتي وملكتي

- أتِمي قصتي "صوفيا"، ذكريني بالتفاصيل، أغرقيني بدوامة الزمن، أريد أن أستنشق عبير الماضي لأتمكن من الدفاع عن نفسي أمام هذا الجنون، وصدقا لا يعنيني إن مت أو حييت، هي مرحلة مؤقتة.. لقد خذلني "ماركوس" وسمح بمحاكمتي، قتلني وهو ينظر بعيني، أراد المملكة ونسي ملكته!

(جلست على سريري المخملي ذي الشرشف الأزرق، ونظرت لسقف غرفتي بهدوء واستسلام كمَيت ينتظر معجزة من السماء تعيد له الحياة .. أكملت "صوفيا":

- كان "أنطونيوس" دوماً يلقي التمائم والتعاويذ لحماية المملكة - حسبما يقول - من الشر الذي تجسد بوجودك، أذكر يومَ رأيت الأم المباركة "إيفا" تُحدثك عن خوفها

عليكِ من "أنطونيوس"، أرادت أن تنبهك إلى مقدار الخطر الذي يحيط بك، لكنك مولاتي كنت واثقة من مكانتك ومن عشق الملك لك، ومن أن هذا يمثل حماية كافية، فلا يستطيع أحد أياً كان المساس بك .

(بسخرية نطق عقلي ولساني): "أي مساس وقد سمح بمحاكمتي؟! أي عشق وقد اتهمني بالخيانة؟! ما الذي أستطيع فعله؟ أنا تائهة بين زمنين، أنا عالقة بين عالمين، لا أملك ذاكرة لأبرئ نفسي، ولا أملك طريقة لأنسى ما كان".

- مولاتي، الحزنُ يقتل الروح، كل ما مر تستطيعين تغييره، النهاية لم تأت بعد!

- "صوفيا"، أود رؤية "إيفا".

- ما تأمرين به مُجاب مولاتي.

- أريد الخروج من هنا، أريد رؤية الحياة من مكان آخر

- أمرك مولاتي .. سأخرجك خلسة .

***

الفصل الرابع عشر

استبدلت ملابسي بملابس "صوفيا"، وجعلت شعري بداخل قبعة كانت ترتديها وخرجت مسرعة بدون أن أنبس بكلمة، إلى إسطبل الخيول الملكية، رأيت حصاني "ليو"، فامتطيته وبدون تمهل جرى بي بعيداً حتى غبت عن العيون.

وقفت وأنا أمتطي "ليو" وشعرت بمرور الهواء عبر جسدي وكأنني أصبحت غير ملموسة، كروح تائهة تبحث عن أصل وجودها.

استمر "ليو" بسرعته الهائلة إلى أن وصل لجبلٍ لونته الزهور فكان إبداعا لخالق فاق جماله كل التصور، أمامه بحيرة شديدة الصفاء، وقف "ليو" وترجلت عنه، رأيت حينها "إيفا" المباركة، ارتميت بأحضانها وشعرت بالأمان المفتقد

- سر وجودي، حبيبتي

(قبلتني بين عينيّ، شعرت بالأمان والسلام المطلق، سلام كنت أتوق له منذ رحيل أبي ولم أشعر به إلا بعودتي لـ "إيفا" و"أنجيلوس")

- أخيراً أرى عينيك أمي؟! أخيراً أشعر كمن وجد ضالة وجوده .

فتحت "إيفا" ذراعيها كمن فتحت لي عالماً من السكينة لأحتمي به من كل آلامي، ليت وجودها لا ينقشع، ليت حضنها يبقى معي للابد، بكل لحظاتي بهذا العالم أو بأي عوالم أخرى.

- "إيفا" .. رأيتك بزمني، أردتِ أن ترسلي لى كلمات تعني شيئاً أليس كذلك ؟ أحتاج لكلماتك، لإرشادك لي فأنا بدوامة من الألم والجنون .. ألم فقدي لأبي في حياتي الأخرى، وألم انفصالي عن حياتي الأولى، وألم خزلان "ماركوس"، وألم خوفي على جنين لا أعرفه ولا أعرف مصيره، ألم حروب أخوضها مع كهنة يطالبون بموتي وموت جنين ينمو بأحشائي!

ذاكرتي تخونني، عقلي يخونني، أنا لا أعرف إن كان ما أحياه حقيقياً أو وهماً! أعيدي ترتيب عقلي فهو يكاد يتمزق من عبث الأقدار به!!

- أعيني قلبَك على التحمل، وأعيني عقلك على البقاء، سأمنحك بركاتي ودعواتي لتعود الذكرى كاملة .

- الذكرى؟ أهي ذكرى ماضي حيواتي من السفر عبر الزمن

- غاليتي عودة الذكري ليست سفر عبر الزمن، فانتقال الروح من جسد لآخر هو قانون الكون، وقانونه أيضاً

هو النسيان، ولكن منحتى لك هي الذاكرة .. كنتِ هنا منذ قرون والآن أنت هنا بقدرة الذاكرة، عدت لكي تستطيعي إدراك ما لحق بك من حياتك الأولى، كل ما مر بك حتى وأنت برحم الوجود ستعرفينه، ستقرأين البدايات، ستدركين الفكرة والهدف والغايات .

- سأعرف من أنا ؟!

- تعرفين من أنت ؟ هذه الفكرة نفسها تقود للضياع، أنت عارية عن المسميات، روح صادقة تجسدت بوجودٍ زائف فحق عليها العذاب لعدم انتمائها، لعدم وجود جذور لها بهذه الأرض.

- أنا لست آدمية؟

- حبيبتي .. أنت تجمعين بين المتضادين، أنت ابنة سماءٍ وأرض .. أتعلمين "أليجرا"، يقال إن النجومَ أرواحٌ غادرت برحيل عن أحبائها فأبت الفراق واستمرت ترقب أحباءها من السماء، وأنا أقول إن النجوم ابنة السموات، تحيا منذ بدء ميلادها، تتألق وتبرق، وتنزوي وتغادر، فترسل لنا جمالها عبر سدم تتجسد بها قطرة من روعتها، وأنت غاليتي تاج النور يتبعك، بيتك الأول رحم تكوينك هي "ستريللا" والدتك، أفنت روحها وحييت من خلالك بنجومها التي تتألق كوشم لا يغادرك،

هي تحيطك منذ الأزل غاليتي، حوكمت لأنها عشقت أرضيّ، كان فارساً ولعاً بنجوم السماء، وكان دائم المراقبة لها .. كان يحدثها ويبكي ويفرح ويثور أمامها، خاطبها وحكى لها مشاعره، كان يتجرد أمامها من قناع صلابته، كان يعشقها وكانت هي تتألق وتزداد بريقاً .. عشقت "ستريللا" الفارس الأرضيّ وتجسدت آدمية جميلة، فعاشا سوياً وأنجبا الجميلة "أليجرا"، ثم رحلت "أستريللا"، حُكم عليها بالفناء، فتفرقت النجمة لنجمات وذابت في طفلتها الساحرة "أليجرا"، وكانت ترسم لك رسائل السعادة والحب كسُدم كنت عندما ترينها تبتسمين فتتراقص هي سعادة بسعادتك.

والفارس عندما لم يستطع البقاء بعد رحيلها وشعر بدنو أجله، قابلني وحكى لي قصته وقصة عشقه ومنحني هبة الرب، أنتِ غاليتي .. إن أمك تحيا بداخلك وروح أبيكِ تحيطك، أنت خليطٌ بين عالمين تجسدتِ كمعجزة تفوق الوصف والتصور.

كنت أستمع لكلمات "إيفا" وأنا أفكر بأن علمنا الحالي لا يساوي شيئاً، هو قطرة ببحر لُجيّ لا يهدأ، وزاد من ضعف إدراكنا إغلاق عقولنا على علمٍ مادي والتغافل عن علوم أخرى، هناك معارف ومدارك فقدنا الكثير من

المعرفة بتجاهلها، أشعر أننا ندور بمدارت ومسارات متكررة، تختلف الأزمان والأمكنة ولكنها لحظات مكررة، مشاعر تربط بين نقيضين أو كائنين من عالمين مختلفين، محاكمات ظالمة، مشاعر تفوق طاقة جسدي على التحمل!!

- عندما رأيت وعلمت أنك تناجين السماء رأيت فيك أباك الفارس الذي عشق، ورأيت النهايات المكتوبة بقلم القدر شديدة الألم، وعندما وافقت على الزواج بـ "ماركوس" فكرت أنه ربما يكون هروباً من المصير، تغييراً لمقدرات دعوتُ الإله دوماً أن يخفف ألمها عنك، ولكن عندما رأيتك تناجين السماء رأيت علامات عشقك ترسم تلألأ نجوم وشمك، علمت أن للقدر ألف وسيلة ووسيلة للتحقق، وأن الهروب منه شبه محال لذلك منحتك انتقال الذكرى، إن كل ما مر بك سيعود باسم مختلف، بشكل مختلف، وربما متطابق، ولكنه سينجذب لك، ولو عادت له ذاكرة الماضي سيكون بشعوره في حياته الأولى، إن كان عاشقاً، ظل عاشقا، وإن كان باغضاً كارهاً، كان كذلك، وإن كنتِ حاربتيه عاد ليحاربك، بمعنى أن كل الحياة ستتكرر بظروف الوقت الحاضر، وهذا سيتطلب منك إنهاء الأمر بزمنك الحاضر.

يجب عليك أن تقرري، أن تضعي قوانينك الخاصة لحمايتك، فأنت لا تحاربين أشخاصاً بل جماعات متأصلة طيلة أزمان متلاحقة، سلطاتهم كغرسٍ يصل إلى نواة الأرض، ربما تستطيعين قطع نبتهم الظاهر، ولكن اعلمي أن لهم جذوراً تمتد إلى عمق عمق التاريخ، وأن إنباتهم يتجدد مع كل طلوع شمس وغروبها، هي حرب ضروس ستمتد إلى الأزمان القادمة، وكذلك روحك "أليجرا".

- لا أريد خوض حروب، مللت الحروب والآلام، لا أطيق من يقتاتون على النزاع وابتكار الصراعات، وجودهم مرتبط بفكرة الخلافات والاتهامات والدماء، أتمنى أن أعتزلهم، أن أبتعد بمنفى اختيارى، منفى من صنع يدي .

- ليت أمنياتنا تتحقق غاليتي!

- ساعديني لأحقق ما أريد.

- حتى إن حاولت لن أستطيع؛ فهذا قدرك الذي لا مهرب منه، كنت دوماً أتمنى أن أمنحك أملا في وجود أكثر سلاما ولكنها السلطة يا غاليتي .. السلطة لعنة الوجود، لسنا مؤهلين لتحمل فكرة التحكم بالآخرين، نحن أدني من ذلك كثيراً.

- سلطة الحكم؟!

- وسلطة الآلهه التي ينتزعها رجال وضعوا أنفسهم بمصاف الآلهه، وسلطة الشرفاء، رعاة الفضيلة والتقاليد التي تعيدنا آلاف الأعوام لنقدم فروض الولاء والطاعة لجماعة من الموتى .. سلطات لا حصر لها ابتدعها البشر الأدنى من فهم الوجود في محاولة لإشباع نهمٍ كثقب أسود بلا قرار ...

- ويلي من فكرة تتغول بعقلي ترغمني على الرقص مع موتى الشعور، موتى الجمال، موتى الإنسانية، ويلى من موتى الوجود وقوانينهم!!

- ومن وضع قوانينهم؟ إنهم بشر، عزيزتي أنها السلطة وجنون التحكم بأقدار الآخرين، وقد وصل بهم السفه إلى محاولة السيطرة على الأفكار، يدينون المبتكرون والفنانون والمبدعون يدينون الخيال والجمال ..الخيال يؤذيهم فهو تحرر من سجن الواقع هو الخطوة -- الأولى لتحقيق الامال وهم يريدون سحق أمالنا والجمال تحليق لسماء الحرية لا جمال بلا حرية، والحرية بالنسبة لهم داء لا يتحملونه، هم يريدوننا اتباع راضون بما يلقون به لنا من بقايا رفات الحياة ..

- والحل؟

- أنتِ محاربة .. ستكونين يوماً رمزاً للتمرد .. ستكونين رمزاً للحياة، فقط اهدمي المعبد على من فيه .. حطمي قيد الزمن "أليجرا".

أود أن تسكن كلماتي روحك لا عقلك، فذاكرة الأرواح أكثر عمقاً وأكثر صدقاً، هي لا تزيف الحقائق ولا تتأثر باختلاف الحيوات.

- كل ما تقولينه يخترق عقلي وروحي، يترك بداخلي إحساسا غريبا لم آلفه يوماً .

- أنت يا حبيبتي كل ما أرجوة بالوجود، سامحيني على ما سيكون، فهو مجرد عبور بالأزمان، ربما يكون فراقك المؤقت مؤلماً، ولكن ثقي بأننا نحن من نخلق الحيوات، وأن أرواحنا ستجذب من نعشق، ثقي بأن لنا لقاء.

(جلست على صخرة وأحنيت رأسي لأنظر لماءٍ ساكنٍ ببحيرة تعكس ألوان السماء حتى تشكلت النجوم بكلمات)

- هنا كنت يوماٍ، هنا نقشت على الماء لحظات حياتي، أبارك لحظات حريتي، لحظات الحياة الحق، لحظات الاختلاف والتفرد، راضية عن كل ما كان وأستعد بكل رضا للسفر بالأزمان، بالرحيل عن الآن !!

أقبل أن أتنازل عن لحظاتي المقبلة بزمن السقوط، بزمنٍ يقدس الموت .. أقبل عن رضا بالبقاء بعدم، أقبل عن رضا بالرحيل بلا ألم، أقبل عن رضا بالانتقال والارتحال إلى لقياك يا نصف كينونتي، إلى يوم تمتد فيه الجذور، إلى يوم يكتمل به النور ..

هنا أغادر طواعية لوجود أرحب، وهناك اللقاء!

الفصل الخامس عشر

عدت بنفس طريقة خروجي من "اللاتيك"، فتفاجأت "صوفيا" ..

- لماذا مولاتي؟ لماذا عدتِ؟ كانت أمامك فرصة للفرار من هذا الجحيم ومما ينتظرك!

- عدت لأني لا أخاف حرباً أوقن أنني على الحق المُبين فيها .

باليوم الثاني كانت جلسة المحاكمة قد بدأت، حينما دخلت يصطحبني الحارسان.

بدأ الكاهنُ مخاطباً منصة لا أعلم منها سوى"أنطونيوس" وكاهنين آخرين .

يجلس "ماركوس" بمقعدٍ أعلى هيئة الحكم، لماذا لم يتواجد على المنصة؟

ربما قرر أن يتخلى عني بأن يترك القرار بيد "أنطونيوس" وأتباعه .

وبدأت السيمفونية الزائفة بالعزف بدايةً بكلمات "إدوارد" الكاهن التابع الأمين لـ "أنطونيوس"..

- أنا أخاف على المملكة من غضب الرب .. يؤلمنى أن أرى الشيطان يتحكم بمصائرنا .. يؤلمني أن يلقى العامة (ويشير للعامة الذين حضروا المحاكمة)، الآلام

والأمراض والفقر واللعنات، التي تزامنت مع دخول "أليجرا" إلى قصر الحكم (يشتعل حماس العامة مطالبين بإحراقي، فيشير لهم أن اهدؤوا) .. لا نستطيع أن نملى على القضاة والقائمين ما يفعلونه، لنترك لهم القرار، ونحن على ثقة بأنهم حريصون على المملكة ومستقبلها الآمن، والأهم على الإطلاق أنهم سيكونون حريصين على رضا الرب .

(يقف الكاهن "أنطونيوس" :

- إننا اليوم سنلقي الحكم الذي يريح قلوبكم لننعم بالسلام و برضا الرب ..

تعالت ضحكاتي حتى صارت قهقهة عالية ساخرة، ولم أستطع كبح جماح نفسي فتساءلت ساخرة صادقة :

- لماذا تقومون بهذه المسرحية الهزلية ؟!

- نحن لا نقوم بأية مسرحيات "أليجرا".

- أنا مولاتك "أنطونيوس"، فلا تناديني باسمي مجرداً من الألقاب .

- لا "أليجرا" لست مولاتي، أنت لا تدركين حجم جرائمك بحق الملك والمملكة، أما كان الأجدى أن تبكي ألما، وأن تطلبي الغفران بدلاً من التكبر والتعالي الواهي

الذي تتمسكين به؟! ولكن "أليجرا" إن أردت أن تتكلمي، فتكلمي، دافعي عن نفسك حتى يتعلم العامة كيف يكون العدل، وحتى نكون قد حققنا كلمات الرب بمنحك الفرصة للنجاة إن كنت بريئة.

صمتُ وهلة وأنا أفكر بكلمات "أنطونيوس"،

- كيف أستطيع أن أقيم كلماتك "أنطونيوس"؟ فرصتي في الكلام تساوي فرصتي في الحياة، محكوم عليها بالموت مسبقا .

- لا "أليجرا" تكلمي، دافعي، وضَّحي ما تريدين قوله فهذا حقك بالمحاكمة.

- حقي؟! وماذا أيضاً؟ أن أختار طريقة موتي؟ أن أتقبل إعدام جنيني برحِمي؟ أن أصمت أمام كل هذا العبث؟ كلماتي ستعطيكم مشروعية ساذجة لمحاكمتي، ولكني سأمنحها لكم .. أتعلمون لم؟ لأكشف عوراتكم .. سأكون هذا الصوت الذي يرن بآذانكم ليل نهار، ستسمعون صرخاتي عند كل عودة للشمس وعند كل اكتمال للقمر، سأجعل من روحي لعنات تلحقكم، سأبيد سلامكم، ولكن الآن كلامي للعامة، العامة الذين تحلق على رؤوسهم عمائم الجهل والإشراك برب الوجود ..ألا تملون الخوف؟!

أليست لكم عقول بها تتفكرون، تتدبرون، تبحثون وتنتقدون؟!

افتحوا الستار عن آثام المنتفعين من جهلكم، من صمتكم، من خضوعكم .. حرروا عقولكم، اهدموا حوائط الخوف وإن لم تستطيعوا لا ترضعوا أطفالكم الخوف، دعوهم علهم يصلون بفطرتهم لما لا تعلمون ولا تجرؤون على الوصول إليه، دعوهم يكوّنون عالماً آخر، تقوده الحرية وتغلفه قوانين آدمية، تمنحهم حق الوجود والتفكير .. أنا الآن بوجود مؤقت .. أنا مجرد عابرة ..

إن مِت أو حييت ما عاد هذا يؤلمني، فروحي قد أصبحت حرة وغادرت، وما أمامكم وهمٌ بصري، جسد بلا روح جسد يحمل عقلا يرسل الأفكار، لم يعد يؤلمني خذلان الملك "ماركوس" ولا اتهامات "أنطونيوس"، فأنا الآن بعالم آخر أقرب للرب.

يقف "فيليب"، وبصوت قلق :

- ماذا تعنين بذلك "أليجرا "؟!

- لماذا تسأل "فيليب" ؟

- إنك الملكة "أليجرا"، وتحملين ولي العهد ابن ملكنا المعظم "ماركوس" .

- سيقتلونه برحمي .

- الملك "ماركوس" لن يسمح بذلك

يقف "ماركوس" ويخاطبني والعامة : ولي العهد لن يُمس "أليجرا"، فقط دافعي عن نفسك، فكلمة منك تنهي كل ما يحدث، كلمة تقولينها وتقسمين أنها صادقة، أنك لم تخوني عهد الزواج وأنك ما مارست السحر والشعوذة، جملتان بسيطتان لماذا لا تقولينهما "أليجرا"؟ فسري لنا ما نرى فسري لنا ما يحدث؟

- إجابتي عن هذه الأسئلة إدانة، وأنا لا أستطيع التفسير.. ألا تستطيعون تقبل الاختلاف، فلتفترضوا أنها هبة الرب لماذا تحيطونني بالاتهامات ؟ أتعلمون صدقاً، ما عاد ذلك مؤلماً بالنسبة لي، أنا فقط أقر واقعا، أن ما يحدث الآن هزل وعبث فاق التصور وما عادت عندي من الكلمات ما يليق بهذا التدني الذي أراه!

ينتفض "أنطونيوس" لينتهز الفرصة السانحة له بتخبط مشاعر "ماركوس"

- "أليجرا" كيف تفعلين هذا بملكنا المعظم "ماركوس"؟ أتعلمين أنك إن لم تقدمي دليلا على براءتك اليوم ستعدمين، ستحرقين؟ وسيكون هذا جزاءً عادلا لإهانتك وإذلالك للملك والمملكة، أو اعترفي لربما يتقبل الرب توبتك، وأنا بنفسي ساحضر لك بـ "اللاتيك" ليكون الاعتراف سريا بيني وبينك .. اختاري "أليجرا" فرحمتنا واسعة والغفران بقلوبنا صنيعة الرب .

(كنت صامتة تماما لا أنطق .. عيناي جامدتان كتمثال شمع بلا روح)

(**أنطونيوس صارخا**): أجيبي "أليجرا"، لقد مللنا مراوغتك.

(يقف العامة، ويتابع الملك وعينه معلقة بكلمات "أنطونيوس")

- "أليجرا لومين"، لقد قررنا نحن قضاة مملكة "الباروتنس" أن ننتظر حتى تضعي جنينك، فإن كان من السلالة الملكية خرجت من الـ "اللاتيك" لتنعمي بملك كل ما تطأه قدماك، وإن لم يكن فسيعدم هو الآخر بالحرق حياً أمام عينيك، حتى ترقبين رحيل روحه وهي تلعنك على ما فعلتيه بها، ثم سيتم فصل رأسك عن

جسدك، ثم حرقك جراء ارتكاب المعصية وخيانة الملك "ماركوس".

حدثت أليجرا نفسها: "انتظار موت جنيني، وليدي، نبض قلبي .. كيف أنتظر موتَه بعد أن يتنفس هواء الحياة، يُحرق لسببٍ غير منطقي، سبب يقودني للكفر بكل ما آمنت به من عدل وخير ورحمة .. ماذا إن كان بعيدَ الشبه عن "ماركوس"؟ ماذا لو كان يشبه جدوده؟ ماذا لو قرر من رآه أنه لا ينتمي للسلالة الملكية ظلما؟ ولم يحرق حتى لو كان ليس ابنا لـ "ماركوس"؟ لماذا يدينونه لجريمتي إن صحت التهمة وكنت خائنة؟ هذا عبث ..عبث!!

لقد حكموا عليّ بالموت مرتين، مرة حين حكموا على وليدي بالحرق حياً إن لم يكن شبيها بـ "ماركوس"، ومرة حين جعلوني أنتظر، الانتظار لعنة لا أجيد التعامل معها. تابعت عيناي مغادرة "فيليب" وهو يكاد ينفجر غيظاً، بينما وقف "ماركوس" ليغادر قاعة المحاكمة كمن لا يصدق ما آل إليه الموقف.

***

جلست على فراشي بـ "اللاتيك" أحدق بالفراغ، إلى أن شعرت باحتضان "أنجيلوس" لي، كنت كالجنين برحم الأم، لست خائفة ولكن عينيّ تائهتين، وبدأت الكلمات تنساب من شفتي.

- حكموا على جنيني، وليدي بالموت حرقاً في حالة أن تتشابه عليهم الأمور، ويتصورون أنه ليس ابن "ماركوس"، هذا الجنون، هذا الخوف يحيطني من كل الجهات .. "أنجيلوس"، أنا أحيا الموت المؤجل، لقد قرر كهنة "الباروا" أن يبيدوا سلام روحي، قرروا الخلاص مني ومن ابني، وما الانتظار سوى وسيلة تعذيب اتبعوها معي

- ما كنت لأسمح بذلك

- خذني بعيداً عن هنا

- الآن لا أملك أن أفعل ذلك، أملك إبعادك عن هنا سواء بعد زمني أو مكاني بإرادتك، ولكني لن أستطيع أن أصطحب جنينك، فقد أصبح - حتى وهو برحمك - كائناً مختلفاً عنك، أنت فقط من تأوينه وتمنحينه الحياة المؤقتة حتى موعد ولادته، لن تستطيعي أن تقرري عنه، وقدرتي تقف عند رغبتك الخالصة بأن تبتعدي عن هذا الوجود، التي أوجبت على نفسي تنفيذها، ولكن

سامحيني مولاتي، شرط قدرتي رغبة الآخر وجنينك لا يملك الرغبة والإرادة.

- إذاً أنا حبيسة هذا السجن إلى موعد ولادتي "أنجيلوس"، سيقتات الألم على روحي!

- لا تخافي سأكون معك دوماً، لن أتركك لحظة حبيبتي، وموعد الولادة قريب أو بعيد هو عبور ليس إلا وبعدها سأصطحبك إلى حيث يجب أن يحيا أمثالك من الأنقياء معشوقتي .

مرت الشهور وأنا لا أدري، فما بين رحلات روحي بأحضان "أنجيلوس" وأفعاله التي تجلب لروحي السعادة، وسعيه الدائم لطمأنتي .. مرت الساعات والأيام والشهور إلى أن كان موعد ولادتي وما كنت أعلم بما يدور خلف الكواليس

***

غرفة بضوء خافت .. "أنطونيوس" يخاطب الكاهن "إدوارد" :

- نفذ ما أقول ولا تحاول التراجع الآن، فكل ما أعددنا له قد تم كما نرغب، والآن فقد سنحت الفرصة لنُحق

الحق وننصر الإله على عبث "ماركوس" وأتباعه، الآن وإلا فلا.

- لقد جئ بالطفل الوليد والقابلة تعرف ما الذي ستقوم به، وهي مستعدة لتنفيذه بلا أي تراجع، فقط نريد إحكام الخطة كي تتم كما نرغب بلا أي مجال لوجود خطأ يدمر ما وصلنا له .

***

الفصل الخامس عشر

نبض موت

صحوت على ألم يمزق رحمي، ألم لم أشعر به مسبقا، ألم يحطم عظام جسدي ألف قطعة، حتى صرت مهشمة لا أملك القدرة حتى على الصراخ .. دقائق معدودة ثم بدأ الألم في التلاعب بجسدي كموجات بحر تبتعد لتعود، فأيقنت أن اليوم هو موعد ولادتي، اليوم قد حان موعد محاكمتي، اليوم قد حان موعد إدانتي وموت قلبي .

صرخت فدخلت لي "صوفيا" :

- مولاتي .. ماذا بك؟

- إن موعد ولادتي قد حان "صوفيا"، أحضري ربيبتي "إيفا" وأبلغي القابلة.

- لك ما تأمرين مولاتي.

خرجت "صوفيا" مسرعة، وبعد لحظات قليلة دخلت امرأة غريبة لم أرها مسبقا، بصحبتها رجل هو خادم لها يحمل حقيبة بها بعض الشراشف والأدوات الخاصة بالولادة، سألتهما: من أنتما وأين "صوفيا"؟

أجابت المرأة: اهدئي مولاتي، "صوفيا" ذهبت لتعلِم "إيفا" بأنك ستنجبين ولي العهد، وأنا القابلة التي ستساعدك على اجتياز لحظات المخاض، اشربي قليلا من هذا المشروب ليهون عليك الألم .

كان الألمُ شديداً، فمددت يدي وارتشفت بضع قطرات، فغاب وعيي قليلا .. كنت أشعر بأني أهذي، وأن الصور من حولي تهتز وتذوب كالشمع ثم تعود لصورتها الأولى، ولكني كنت أستمر بالدفع كما كانا يطلبان مني، كنت أصرخ منادية على ربيبتي "إيفا" ووصيفتي "صوفيا"، فلا يصدر مني إلا صوت خافت أكاد أنا نفسي لا أسمعه ..

كنت خائفة من المرأة التي لا أعرفها هي وتابعها ولكني ما شككت أن يحدث لي ما حدث!

فبينما أصارع شعوري بالهذيان والتيه، وأصارع ألمَ الولادة، رأيت حارسَ زنزانتي يناول الرجلَ طفلاً عارياً ذا بشرة سمراء اللون يمسك به هذا الخادم الذي بصحبة المرأة، و يدهن جسده بالدماء وماء الرحم الذي انسال مني .. كنت أشعر بضعفٍ شديد ووهنٍ واستسلام، حتى رأيت من بين جفني، اللذين أشحذ كل قوتي لأبقيهما مفتوحتين، رأيت المرأة تتلقف طفلي الذي خرج من بين قدميّ، رأيتها تمسكه من رقبته وتضغط عليها حتى تتحطم وتحشو فمه بقطع من القماش الأسود .. هو لا يصرخ، لا يبكي حتى، إنه لا يتنفس .. قلبي كانت دقاته

تفوق دقات طبول الحرب، وجسدي يخونني، ولا أملك القدرة على الصراخ ولا القدرة على الدفاع عن وليدي.

شعرت أني أغادر الحياة الآن، كل ما بحولي جنونٌ عظيم، عبثٌ لا يُحتمل ..

تابعت بآخر ما تبقى لي من قوة لأفتح عيني لأرى طفلي وهم يلفونه بقطعة من القماش، ثم يضعه الخادم النجس داخل الحقيبة التي كان قد أفرغها مما بها ويغادر.

لن يسأله أحد عما يحمل بحقيبته الملعونة، فقد أخفى وليدي ليبدو وكأنه بقايا خلاص رحمي ملفوف بقطع من القماش الأسود .. غادر الرجل ومعه ابني، ثم أمسكت القابلة بالطفل ذي البشرة السمراء وبدأت بالصراخ:

- الطفل ملعون ...إنه فعلا ابن للشيطان ...إنني أخاف أن أمسك به، أبلغوا الكاهن المعظم "أنطونيوس" ليحضر ليرى ما الذي نستطيع فعله لحمايتنا من الشيطان ولعناته .. أسرعوا

وعادوت الصراخ إلى أن دخل "ماركوس" و"أنطونيوس"، تبعه بعد لحظة "فيليب"، الذي وقف حائلا بيني وبينهم لحمايتي وخوفاً من أن يفتكوا بي، إلى أن تبعته "صوفيا"، و"إيفا" التي كانت تحاول التقاط

أنفاسها بصعوبة، فوقفت المرأة تحمل الطفل لتجعله ظاهراً للعيان ببشرته السمراء الذي هو بالتأكيد ليس من نسل "ماركوس" ..

كانت خطة شديدة الإحكام، وأنا الآن لا أملك - حتى - القدرة على محاولة إنقاذ ابني، لقد تجاوز الإجرام أقصى حدوده، قتلوا ابني .. والآن يقتلون طفلاً بريئاً آخر، فقط لإحكام خطتهم النجسة!!

خاطبت "ماركوس" بعيني، فما فهم ما أقصد، وبدأت شيئاً فشيئاً في العودة لطبيعتي.

اقتربت "إيفا" مني وأمسكت بيدي، ونظرت للطفل ذي البشرة السمراء وعاودت النظر لي، ثم هبت واقفة :

- هو ليس ابن "أليجرا"، إنها مؤامرة قذرة منك يا "أنطونيوس" .. أين ابن "أليجرا"؟

لم يُجب "أنطونيوس"، ولكنه بدأ في الصراخ والعويل:

- أسفي عليك ملكنا المعظم "ماركوس"!! هذا ما كنت أحذرك منه ملكنا، هذا ما كنت أخافه!

قاطعه "فيليب": أجب على "إيفا" ولا تتهرب من السؤال.

رأيت القابلة تستفز "ماركوس" وتحاول أن تقرب الطفل ذي البشرة السمراء من وجهه ليراه، فصرخ فيها:

- أبعدي هذا الشئ من أمامي.

انتهزت "صوفيا" الفرصة وأمسكت بالطفل ظناً منها أنه بالفعل ابني وخرجت سريعا، كانت تحاول حمايته.

حاولت الوقوف وأنا أترنح، فصرخ "أنطونيوس":

- أمسكوا بالملعونة "أليجرا" حتى يتم إحراقها هذه المشعوذة المجرمة.

حاول الحرس الاقتراب، فوقف أمامهم "فيليب" و"إيفا"، وبدأ صوتي في الظهور: ابني مع الرجل .. ابني مع خادم المرأة.

سمع "فيليب" كلماتي، فخرج مسرعاً و"ماركوس" يقترب محاولاً أن يفهم شيئاً، كان كالتائه الذي لا يستطيع استيعاب أي شئ من الأحداث التي تمر أمامه

كانت "صوفيا" تجري وتحاول الخروج من "اللاتيك"، وبآخر ممر الخروج بـ "اللاتيك" سمعت الأصوات تعلو، فجرت للحديقة الخلفية هرباً من الحرس، فهالها ما رأت .. كان خادم المرأة يمسك بقطعة القماش التي

يظهر منها قدم طفلي ويلقي به داخل حفرة صغيرة، كانت معدة مسبقا كي يتخلص من وليدي فيدفنه بها ..

بدأت "صوفيا" في استيعاب حجم المؤامرة التي تتم، والتي نُسجت خيوطها بعناية وخبث فاق كل تصور، فصرخت ونادت الحرس، فجاء الحرس على أثر صوتها المرتفع، وعلى رأسهم "فيليب"، حينها هرب خادم القابلة بعيدا، فوضعت "صوفيا" الطفل ذا البشرة السمراء بيد أحد الحراس وأمسكت بابني وهي لا تكاد تصدق ما يحدث، كانت تحاول أن تجعله يبكي، نزعت قطعة القماش من فمه واجتمع الجميع حولها .. كنت أسمع الأصوات وأنا بزنزانتي ولا أستطيع أن أفهم ما يحدث، فقد كانت الأصواتُ خليطاً من الصرخات والبكاء والدعوات، كانت "إيفا" تحتضنني وتهمس: لا تخافي حبيبتي، ولكني كنت أرتعد خوفاً، وحدث كل ما توقعته تماماً، رأيت "ماركوس" قادما وهو يحمل ابننا، الآن يحمل ابني وابنه .. كانت دموع عينيه تتساقط كنهرٍ ملعون، كنت أرى دموعه كالدماء، هو مجرم بقدر إجرام "أنطونيوس"، قتل ابنه وقتلني .. وعلمت أني بقدر ما مررت به بحيواتي ما عرفت ألما قط قدر ألمي عند معرفتي بموت وليدي .. اقترب مني "ماركوس" ومد يديه لي وهو يحمل جسداً كان أطهر ما بالوجود

ومازال، نظرت إليه وما عدت هنا، غادرت روحي وغادرت الوعي!

عيناي تجودان بدموعٍ كالنار تحرق وسادتي، وأنا أفتح عينيّ لأجدَ "أنجيلوس" وهو يحتضن رأسي ويهمس :

- لم أكن أملك أي قدرة على تغيير ما حدث .. سامحيني يا روحي المعذبة، يا اكتمال وجودي، سامحيني فألمك يمزق كلي.

لم أتمالك نفسي، استمر صراخي، كنت ألقي بصرخاتي أقسى آلامي مع آخر أنفاسي، وددت بكل صرخة لو مِت معها، كنت أبصق روحي ولا رغبة لي باسترجاعها..

- لا يا إلهي .. لا أستطيع تحمل هذا الألم.

أخذ "أنجيلوس" يدي وحاول تهدئتي .. وقتها جمدت كل مشاعري .. مِت .. مِت وأنا على قيد الحياة!!

كل ما كان يسيطر على مشاعري هو وجه وليدي، نجمة السماء التي ستصحب روحي بكل حيواتي، وشعوري بوجوب القصاص من "أنطونيوس"، هذا الفاجر الذي اغتال حياتي وتفنن في تمزيق قلبي.

الألم يحيطني من كل جانب، لا أعرف عدد الأيام التي قضيتها وانا بانتظار الموت لأستريح .. لم يتركني

"أنجيلوس" لحظة واحدة، كان يحاول أن يجعلني أحيا، إلى أن عاودت الحياة بالموسيقى، عدت إلى رسائل أبي "محسن سليم"، أرسلت له رسالتي بموسيقاي، وجعلت بها كل آلامي ومشاعري، التي لم أستطع أن أستوعب حجم ألمها إلا عندما صارت مقطوعة موسيقية بعنوان "فراق"، هنا بدأت في العودة لـ "ريم"، العودة لأنا بزمننا الحالي، ولكن كان هناك دوماً وجعٌ ودقات على أبواب عقلي تزعجني وتؤلم قلبي، هي عدم وجود نهاية، عدم إغلاق القضية لا يمنح سلاما، وأنا توقفت عند مرحلة التمزق، والآن أريد بشدة معرفة باقي قصتي، و تحققت رغبتي أسرع مما توقعت.

***

غبت عن الوعي، لا أعرف لكم من الوقت، وعند عودتي كانت "إيفا" تضع تاج الياسمين على رأسي، تلمس وجهي وتقرأ تعاويذ الحماية، فتحت عيني فابتسمت لي، وقبلتني، وأمسكت بيدي، وهمست بأذني: "حبيبتي لا تبتعدي .. لا تغادريني .. أحتاجك غاليتي" شعرت ببضع من سلام، كنت بجناحي الملكي وأخذ صوت العامة القادم من شرفة القصر بالارتفاع، فسألت "إيفا" عما يحدث:

- حبيبتي، اليوم هو يوم تحقيق بضع من عدالة تريح القلوب، القصاص حق لك غاليتي، فتطلعي من شرفة جناحك لتري "أنطونيوس" وهو يُحرق كما كان يود أن يفعل بك، انظري له ودعيه يراك ليعلم أن مكره النجس قد لحق به ليكتب له أسوأ النهايات.

تطلعت من شرفة جناحي لأجد "ماركوس" جالسا على كرسي عالٍ وبجانبه "فيليب"، وعلى الجانب الآخر كاهن لا أعرفه .. كان "أنطونيوس" قد قُيد مصلوباً على شجرة وتحيطه أخشاب سريعة الاشتعال، والقابلة تقف مربوطة الذراعين خلف ظهرها أمام مقصلة، والخادم راكعاً أمامها ينتظر دوره في الإعدام .. جموع الشعب ترقب الحدث وتترقب الموقف.

ينظر "أنطونيوس" للجميع، يتكلم ويتمتم بعباراتٍ كثيرة، ففمه لا يكف عن الحديث .. ما زالت الحشود تحت تأثير الصدمة، والكهان قد تجمعوا وفي عيونهم نظرات كالنار المشتعلة موجهة لـ "ماركوس" والحرس وكل من بالقصر، إلى أن تكلم "فيليب" :

- أيها الشعب، اليوم تقام محاكمة "أنطونيوس" بتهمة قتل ولي العهد، ابن الملك "ماركوس" من زوجته الملكة "أليجرا" .. اليوم يوم العدل، ولنبدأ بمنحك الحق "أنطونيوس" في الحديث فتكلم بما أردت، هذا إن استطعت إيجاد كلمات.

ينظر "أنطونيوس" لـ "ماركوس"، ثم يلتفت للحشود والكهنة:

- اليوم يحاول الملك "ماركوس" أن يحطم السلام الذي ننعم به بفضل رضا الرب، اليوم يبكي الوجود خجلاً مما يحدث بمملكتنا، يقال إنني قتلت ولي العهد وأنا برئ من ذلك، أنا لا قدرة لي على ارتكاب السوء، أنا ابن الرب بالوجود، أنا من يحمي الفضيلة فكيف أخونها ؟ ولي العهد وُلد ميتا، فحاول خادم القابلة دفنه لكي لا يتألم الملك والملكة، وأنا بنفسي صليت لكي

يخفف الرب وجع قلبيهما جراء ابتلاء الرب بالفراق، والآن تودون إحراقي بدون ذنب اقترفته!!

يقف "فيليب" ليواجه "أنطونيوس" مانعاً إياه من الاستمرار بعبثه وإنكاره:

- لقد اعترف أفراد مؤامرتك بما فعلت، لقد أقروا بما نويت فعله وما فعلته بالفعل، أنطونيوس"، أنت تحاول إنكار جريمتك الثابتة باعتراف شركائك بالجرم.

- لم أرتكب أي جريمة، أنتم تحاولون إلحاق العار بي

يحاول "فيليب" مقاطعة "أنطونيوس"، فيشير له "ماركوس" بالصمت، ويبدأ"ماركوس" بالكلام بملامح جادة وبمشاعر جامدة :

- "أنطونيوس"، لقد قتلت ابني وأنا رأيت بشاعة فعلتك، هذه ليست محاكمة، نحن هنا اليوم لكي نقتص منك، والقصاص للقتل لا يكون إلا بالقتل.

يجن جنون "أنطونيوس" فيبدأ بإلقاء اللعنات والكلمات غير المفهومة ثم يصرخ بالكهنة:

- أيها الكهنة، يا حماة الفضيلة، أنتم تعلمون أن المملكة أصبحت ملعونة منذ وطأتها "أليجرا"، إن "أليجرا لومين" التي لا نعرف لها أصلا هي نبت شيطاني نما

بأرض المملكة وسعى لتدميرها (أمسك "ماركوس" بسيفه ورفع رأسه، وبدأ يخطو تجاه "أنطونيوس" خطوات باردة ثابتة .. لمح "أنطونيوس" عينيّ "ماركوس" فقال للعامة والكهنة، وهو يرمي بآخر أوراقه المشوهة :

- أتودون معرفة أين اختفت "أليجرا لومين" بالفترات التي كانت تغيبها؟ أتريد أن تعرف أيها الملك "ماركوس"؟

(وبدون انتظار إجابة من "ماركوس" وبأعلى صوت يملك)

لقد ذهبت لتلقي بنفسها بأحضان الشيطان المُجسد كبشر، لقد فضلته عليك أيها الملك الأبله "ماركوس"، لقد اختارت الجزء الملعون من الوجود، فضلت الظلام على النور، خذلتك فجن جنونك.

يقترب "ماركوس" من "أنطونيوس" فيتفاجأ بي أمامه لأشير له بالابتعاد، ثم أمسكت بالشعلة واقتربت من "أنطونيوس"، الذي قال لي وهو يلقي بآخر كلماته في الوجود :

- "بيني وبينك "أليجرا" ثأر سأتبعه حتى آخر الزمان.

وببساطة وتلذذ، أشعلت النيران لتلتهم جلده العفن وجسده المدنس، ثم تم تنفيذ حكم الإعدام على القابلة وخادمها بفصل رؤوسهم عن أجسادهم.

عدتُ لجناحي الملكي وارتميت بصدر "إيفا" .. حاول "ماركوس" أن يدخل جناحي فمنعته "إيفا"، وكان هذا جيد جدا، فأنا أدين "ماركوس" ربما بحجم إدانتي لـ "أنطونيوس" .

***

الفصل السادس عشر

فناء

إلى اليوم الذي قررت فيه إنهاء قصتي، قررت الرحيل، ولكنه لن يكون رحيلاً صامتا، لن يكون رحيلا مريحا لنفوسٍ من وضع بقلبي كل هذا الألم .. طلبت من "إيفا" مغادرة القصر على وعدٍ بلقاء، وأفهمتها أن ساعة اللقاء ستكون بزمن آخر، وهي تعلم أنني فهمت منحتها الآن لي، إنها الذكرى التي استقبلتها وأنا غير مدركة مدى إيلامها لي، ذكرى غيرت كينونتي وأظهرت ما بداخلي من مشاعر لم أكن أدري بوجودها، الانتقام هو منحتي لهم، هم وكل من ساندهم وكل من سمح لهم أيا كان.

ارتديت أجمل ثيابي ووضعت أجمل العطور وأكثرها تأثيراً، وخرجت لشرفتي وبدأت بالعزف على الطبول، وفوراً خرج "ماركوس" لشرفته ليراني بشغف العاشق،

استمررت بالعزف وأنا أراه وأعرف مشاعره، ثم ناجيت عشقي وطالبته بالمثول أمامي، تجسد أمامي فتلاقينا لقاء العاشقين، بعناقٍ غبت فيه بجسد "أنجيلوس"، كنت أشعر بعيني "ماركوس"، حينها همست لـ "أنجيلوس" فحملني ودخل بي لجناحي الملكي، أسرع "ماركوس" مهرولاً ليصل إلى باب جناحي في ثوانٍ معدودة، فرآني وأنا نائمة على سريري، متجردة من ملابسي إلا من قطع تزيد الموقف اشتعالا .. بحث

بكل جناحي فلم يجد أحداً، كان كالثور الهائج وكنتُ كالمصارع الذي يجيد استخدام خناجره وسيوفه، وإن كنت أرى أن المصارع هو من يفقد روحه وهو ينخز الثور، فكل نخزة تنغرس بجسد الثور تعني أن جزءًا من روح المصارع تغادر حتى يصبح المصارع آلة قتل وتفنن في التعذيب بلا روح أو رحمة، أهذا ما يحدث لي؟ أهذا ما ألاقيه؟ أصبحت مصارعة ثيران تفقد روحها تدريجياً ؟!

أمسك "ماركوس" بيدي وصرخ بي:

- ماذا تريدين أن تفعلي بي "أليجرا"؟

- أريد الابتعاد .. أريد فراقاً يريح قلبي.

- "أليجرا"، أعلم أني تسببت لك بالأذى .. ألا تستطيعين الغفران؟ هل من الممكن أن يعود الزمن؟ سامحي "أليجرا".

- أسامح على ماذا؟

- لا أعلم حتى، أنا تائه .. من الذي تناجين؟ما أراه شديد الألم ؟

- ماذا ترى "ماركوس" ؟

- أراك تخونيني .. أراك بأحضان رجل آخر.

- صدِّق ما ترى.

- ألا تملين من التلاعب؟

- ألا تمل من الغباء ؟

- أنت مجنونة "أليجرا"!

- نعم أنا مجنونة فقدَت عقلها عند فقدها لابنها على يد أبيه.

- أنتِ من تضعين نفسك موضع الاتهام.

- أنا من قالت لك سابقاً أن ما بيننا قد انتهى

قالت "إيفا" عندما قامت بمراسم زواجنا: "ليكن القلب راضياً .. لتكن الروح راضية .. ليكن الرب راضيا"

هذه هي شروط وأركان الزواج، فماذا لو سقط أحد الأركان؟

"ماركوس"، لو سقط أحد الأركان فقد هُدم البنيان، وبنيان زواجنا هُدم منذ زمن، هدم عندما قيدت روحي وحاولت تغييري لأليق بك ولم تفكر أو تحاول أن تتغير أنت لتليق بي .. رأيتني مختلفة فعشقت اختلافي، ثم سعيت لمحو هذا الاختلاف والتفرد، رأيت الاتهامات تنهال عليّ فماذا فعلت؟ راهنت على الانتظار.

- كنت أفكر بالمنطق والحكمة "أليجرا"

- كنت تقامر بمشاعري .. حاولت أن أتقرب منك فأبعدتني، طلبت حمايتك فخذلتني، اتهمتني وقبلت اتهامي من الآخرين حتى ابننا أنت من قتله.

- لا لم أقتله .. لن أسمح لكِ بذلك، ابني قتله جنونهم وسعيهم للسلطة.

- ابني قتله ترددك وضعفك واتباعك لأفكار مريضة .. "ماركوس"، ماذا لو خنتُ رباط الزواج؟ ماذا لو عشقت آخر؟ ماذا لو أردت الخلاص من زواجنا؟ الزواج علاقة اختياريه تنتهي برغبة أحد طرفيها، هي ليست سجناً مدى الحياة، هي علاقة شروطها واضحة، وهي رضا الروح والقلب والرب، فإن فعلت أي امرأه ما يخل بالرباط الزوجي فالحل هنا هو أن ينتهي هذا الرباط لا أن تنتهي روح المرأة، لا أن تحرق أو تقتل أو حتى تُهان .. تتصور في نفسك أنك مختلف؟ ما أنت إلا صورة حديثة لأفعال الجنون الذكوري والتسلط الأحمق الذي ترغبون به، أما الآن "ماركوس" فإن ما بيني وبينك تعدى الانتهاء، لن يكون بيني وبينك لقاءٌ بحياتي مجدداً، سأرحل "ماركوس"، سأرحل مع مَن عشقت وسأترك لقلبك كل الألم، ومنحتى لك، الذكرى التي

سوف تتغذى على روحك حتى تصبح من الموتى الأحياء.

كان "ماركوس" ينظر لي وهو كمن يستعد لإلقاء نفسه بالجحيم، كان مستسلماً وكانت كلماتي كخنجر يصول ويجول بقلبه .. نظرت بالمرآة فرأيت عيني "أنجيلوس" فزعتين، ورأيت خلفي "ماركوس" يمسك بجسدي والخنجر يعانق عنقي!!

***

ألمي وأنا أمسك عنقى جعل "أنجيلوس مالك" ينتفض خوفاً ويصرخ بي: "ريم" .. "ريم"، أفيقي الآن وإلا ستموتين .. هذه ذكرى، مجرد ذكرى، كفى أنت لن تتحملي مزيداً من هذا الجنون، وأنا لن أضيعك مني مجدداً!

أمسكت بيده ووضعتها على قلبي ليهدأ ولو قليلاً، وبدأت أتذكر هذا الرجل بالبار، صاحب الكاسكيت، هو .. إنه هو "ماركوس" .. اللوحة التي قد رُسمت رسمها هو بعدما قتلني، رسم نفسه ورأى عين "أنجيلوس"، نعم رآها لذلك رسمها، كان يعلم أن هذه اللحظات هي آخر لحظاتي معه فلم يتحمل .. أي عشق هذا إنه جنون!!

***

الفصل السابع عشر

منفى اختياري

عدتُ بعدما أدركت حجم مأساتي، عدت وقد أخذت نصف القصاص، عدت وقد أَلِفت الألم والانتقال، عدت وما عدت أنا مجدداً..

ارتديت ملابسي وخرجت للبار الذي رأيت به "ماركوس"، كانت ليلة شتوية شديدة البرودة، ارتديت (جاكيت) طويلا من الجلد على قميص أبيض بلا أكمام وبنطلون كلاسيكي أسود بخطٍ أبيض، شعرت بالحرارة الشديدة رغم برودةِ الطقس، جلست داخل البار أنتظر، وما طال انتظاري، لمحته يراقبني، طلبت اللوميني أكثر من مرة حتى شعرت بقليل من الاسترخاء، بدأت الطبول بالقرع في أذنيّ وتواصلت نظراتي، و"ماركوس" حتى قام من مكانه واقترب مني ..

- هل تسمحين لى بالجلوس؟

(أشرت له بالسماح .. فجلس)

- "ماركو" .. وأنتِ؟

(كانت نظراتي تخفي ما بقلبي)

- "ريم "

- رأيتك هنا سابقاً وكان معك رجل يعزف الساكس، أهو صديق لك؟ لقد أعجبني عزفه بشدة.

- نعم هو صديق مقرب .. **(ضحكت ثم أكملت)**

أتعلم؟ أتعجب من شعوري تجاهه وكأنني كنت أعرفه منذ ألف عام رغم أنني عرفته قريباً جداً .. غريبه أليس كذلك؟

- ربما .. إذاً أنتِ ألفتيه سريعاً وتشعرين بأنه مقرب منك.

- "ماركو"، ما الذي تود السؤال عنه ؟

- لا شئ هي دردشة، فكم أتمنى أن أكون صديقاً مقرباً لك

(اتسعت ابتسامتي)

- ربما

- أترغبين بالرقص؟

- موسيقاهم لا تثير جسدي..

- اختاري ما تودين سماعه وسأطلب منهم أن يعزفونه

- لا "ماركو"، لا تطلب منهم شيئاً لن يستطيعون تحقيقه.

- ولم ؟ إنهم عازفون مهرة.

- أعلم ولكنهم لا يعزفون على الطبول التي أود الرقص عليها .

تغيرت نظراته وثبتت على عنقي:

- إذاً أنتِ تودين الرقص على نوع محدد من الطبول؟

- نعم

- ما اسمها ؟

- لا أعرف، ولكني أتوق للرقص على أصوات طبول خاصة لم أر مثلها قبلاً، ربما سأبتكر آلة موسيقية جديدة فقط للرقص على موسيقاها .

- أتعرفين الكثير عن الموسيقى؟

- أنا عازفة كمان ومؤلفة موسيقية.

- توقعت ذلك، فهذا الجمال لا بد أن يخلق جمالاً

(ضحكت ونظرت بعينه): ما هو عملك "ماركو"؟

- أعمل فوتوجرافر ورساماً، أرسم اللوحات والوجوه التي تؤثر بي و ..

(انتظرت ليكمل ما أوقن أنه سيقوله الآن)

- أتسمحين لي بتصويرك أو رسمك؟

انفجرت ضحكاتي، كنت أتلاعب به ككاتبٍ محترف يكتب بأصابعه مقدرات أبطاله فيصل لنشوة ساحرة عندما تتجسد كواقع.

- لم تجيبي؟

- تصورني وترسمني؟ أتستطيع؟

أمسكت بوجهه بين يدي وأظافري هتكت أناقة شعره فتبعثر كموجات بين أصابعي، حاول الإمساك بيدي فسحبتها وأشرت بأصابعي ..لا)

- سأحاول جمع سحرك بعدستي وبريشتي، وإن كنت أشك، فمن أين أبدأ لا أعرف، كلما أحببت أن أصور شخصاً ما عرفت موطن سحره فأقرر - بمجرد النظر له - من أين أبدأ، إلا أنت لا أعرف أي جزء منك أكثر سحراً، عيناك أم شفتاك أم شعرك الغجري الذي يطيح بالعقول، جسدك الفاتن أم تعبيرات وجهك التي تحفز المشاعر .. عندما أنظر إليك أشعر برهبةِ من يقف أمام الإله عارياً .

- إذاً ستصورني "ماركو"، ولكن ليس هنا، أريدك معي، عندي ببيتي.

قفز "ماركو" من على كرسيه، فنظرت له واستمررت بارتشاف اللوميني وتدخين سيجارة لم أنهها، واستمر هو بالوقوف مترقبا انتهائي من مشروبي، وما تعجلت إلى أن انتهيت من مشروبي، ثم خرجنا سويا.

فتحت شقتي فوجدت عطر "أنجيلوس" حولي وشعرت به يجري بدمي، إن "أنجيلوس" يحيا بداخلي .

أحضر "ماركو" كاميرا من عربته ووضعها بـ (ريسيبشن) شقتي .. دخلت غرفتي وارتديتُ رداءَ غجرية .. رداء كاشف لبطني البرونزية التي تتلألأ بمنتصفها حلقة من الفضة، يتوسطها حجر أحمر شديد الجمال، شعري حر كما أحب أن يكون، والقلادة الحمراء تتوسط عنقي وتتدلى على صدري، الذي تألق بكبرياءٍ خلف ثقوب الشال التي وضعتها عليه بإهمال متعمد .. اقترب مني "ماركو" ليختار لي وضعية التصوير، وأبدع بالتصوير باحتراف .. اتخذت الكثير من الوضعيات التي أعلم أنها ستقوده للانهيار، كنت أرغب بأن أعيد له اشتعال مشاعره وسطوة عشقه لي، كان يتعمد ملامسة جسدي وكنت أتعمد السماح له حتى قررت أن أكتفي منه اليوم، ففتحت الباب وأشرت له بالخروج .. لملم شتات نفسه ونظر لي متعجباً، ثم

غادر، أغلقت الباب خلفه بمجرد خروجه وعدت لأجد "أنجيلوس"، لألقي بنفسي بأحضانه وأقتنص متعة مضاعفة لجسدي.

صحوت على موسيقى اللقاء يعزفها "أنجيلوس"، لم أكلف نفسي عناء النهوض من الفراش، كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة عصرا...

قهوتي تتسلل رائحتها كرحيقٍ ينعش ذاكرتي ويعيد التوازن لعقلي بعد تيه الـ"لوميني" .. كان البانيو ممتلئاً بالماء الفاتر، تطفو على سطحه زهور الياسمين، تختلط بالماء عطور وزهور .. انتعش جسدي وعدت لسريري لأجد خنجراً وضع بدقة على أحد جانبيه، فقررت أن أستمر برحلة القصاص.

ذهبت لبار الزمالك وأنا متأهبة لما سيكون، كان "ماركو" جالساً منتظرا حضوري .. عند دخولي هبَّ واقفاً واستقبلني باسماً :

- "ريم" .. أفتقدك منذ أمس.

اقتربت شفتاي منه، ثم همست: تعال

خرجنا سوياً وكل ما بعقلي، كيفية القصاص منه .. تصورت أني أحرقه حيا، وتصورت أن أنحر عنقه، أن ألقيه من أعلى طابق لأرقبه يغادر الحياة، ثم خشيت أن يسمع ما يجول بعقلي، فصمتت أفكاري قليلاً حتى وصلنا لمنزلي.

- تعال "ماركو"

تبعني بلا كلمة وفتحت الباب، ثم أغلقته بحرص، خلعت عني معطفي فتلألأت قلادتي النارية، واقتربت منه وأدرته حتى صرت خلفه، وصارت مرآة الكونسول أمامه، فهبط على قدميه وهو ينظر لي وهو موقن مما أود فعله)

- "ماركوس"

(درت حوله حتى أخذ يتبعني بعينيه وأنا خلفه)

- "أليجرا" سامحيني

- (أخرجت الخنجر ورفعته لينعكس بريقه بعينيه، فنظر لي وصمت، لم يحاول الهرب أو أن يمنعني، بل رفع رأسه لأعلى وهو مستسلم بلا أي اعتراض)

- لست خائفاً "ماركوس"؟

- مم أخاف "أليجرا"؟ لقد عشت ألف ذكرى .. لعنتُكِ قتلتني آلاف المرات، لقد كنت أنتظر لقياكِ لتقتصي مني وتهدأ روحك الأولى، ولتمنحيني سلاما .. كنت أشتهي الموت فلا أناله طيلة آلاف الحيوات، والآن أعلم أن ميتتي التي على يديكِ ستكون ميتتي الأخيرة، وأنا أبتغي الميتة الأخيرة "أليجرا"، امنحيني إياها فأنا لا أتحمل

عذابات البقاء بألم ضميري وألم الفراق، فراق ابني وفراق معشوقتي ...اقتليني لتقتصي لابني، اقتليني لتقتصي لروحك التي جعلتها تغادر جسدك بلحظة جنون خوفا من ألم الفراق، فضاعفته .. "أليجرا"، للموت لذة الخلاص وأنا أريدها فامنحيني إياها

كانت كلماته رسائل صادقة، ولكن .. أتستطيع قلوبنا أن تمنح الغفران ؟ أنستطيع أن نمنح الغفران لمن اغتال نبت روحنا؟ أنستطيع أن نمنح الغفران لمن كانت حياته سجناً من الذكريات؟

لو منحته نهاية وخاتمة لما يعانيه، فستكون بداية لعذابات مضاعفة بقلبي وروحي، ربما لم يكن "ماركوس" على قدر متطلبات روحي وعقلي .. ربما اختياره ليكون على الحياد جريمة .. تردده وموائماته جريمة، فبعض المعارك لا تحسم إلا بالقرار الصريح، بعضها لا يقبل أنصاف الحلول، وقضيتي طوال حياتي قضية لا تقبل الحلول الوسط ولا تقبل التشكيك .. هويتي بهذا الوجود لا تقبل إدانة من بشر، ربما لأنني لم أختر أن أكون مواطنة أرضية أقبل بقوانين لم يؤخذ لي فيها رأي، قوانين توجب علي الاتباع بلا تفكير أو تفنيد أو اختيار،

هذه أنا، رافضة لكل محاولات القولبة متمردة على كل ما يمنع عقلي من تحقيق هدفة الأسمى بالتفكر والتدبر ولكني الآن أختار ...أختار ألا تكلل ذكرياتي بانتقام لا يليق بي .. ألقيت بالخنجر من يدي الآن أدركت حجم ما قاسيته الآن وضحت الصورة الآن برئت روحي من الألم، وابتعدت وأنا أستمع لصوت أقدامي وأنفاس "ماركوس" وصوته الذي ناداني كثيراً ألم صوته كان برداً وسلاماً على ما بقى بروحي من ذكرى وغادرت!!

***

"أنجيلوس مالك"، لم أفكر يوماً بالبحث عن أصل وجوده .. عشقته كما هو مُنزهاً عن التفاصيل البليدة التي تميت القلوب .. عشقته حراً فريداً مُحلقاً بأنحاء الكون كما أنحاء قلبي، يداي تستشعران لذة الحياة والوجود باحتضان يدي "مالك، أسير معه حافية القدمين على أعشابٍ بالغة النعومة، تحيطني موسيقى تعزف من ملائكة تطوف بالسموات لتمنح أصحاب الانتماء الوجودي متعاً تفوق كل ما تصوره البشر، بركة الماء تتألق تحت سماءٍ ضاعف نقاؤها سحرها، والسدم فيها تتشكل كعيون أمي .. نجمات جسدي تراقصت وتوجت جبيني .. تاج الياسمين يعود لأحضان شعري، وأنا أتنقل بين الزمنين، ماضٍ، اخترت أن أحياه بعيداً عن جنون البشر، وحاضر، أنعم فيه بالخروج عن كل ما عافته نفسي سابقا.

مِنحتى المقدسة اختيار، وأنا اخترت أن أحيا بعيداً عن قيود الزمن وقيود قوانين السفهاء .. قررت أن تكون لعنتي الأولى هي مِنحتي الدائمة ..

"عالم أحياه بمنفاي الاختياري بعالمي" .

أنا ألفُ طلسمٍ منِ الأسحارِ وبريقِ الأقمارِ مَن يرنُو لها يضاعفُ لحظاتِ وجودِهِ بالوجود.
أنا لا أحاكِم أنا أُحاكِم، أحاكِمكُم أيُّها التابعون، سأجلِدُ قلوبَكُم ألفَ عامٍ جزَاءَ ما تفعلونَه بي. أنتُم لا تعرفونَ عنيِ سوى ما تتصورونَه، خوفُكم قيَّدَ فِكرَكُم، شَوَّهتُم كلَّ أوراقِ التاريخ، اقتلعتُم بذورَ الحكمةِ خلقتُم قطيعاً منَ العميانِ فقتلوا المبصرَ الوحيدَ.

***